تاريخ مصر العربية الإسلامية

اعداد :-

أ.د/ممدوح عبد الرحمن عبد الرحيم

جامعة جنوب الوادي

كلية التربية بقنا

الفرقة الثالثة عام تاريخ

الفضل الدراسى الثاني 2023/2022

الفصل الاول

أولا : أحوال مصر قبيل الفتح العربي الإسلامى:

كانت مصر تمثل إحدى الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية ، وذلك خلال القرن السابع الميلادي، وأن المتأمل تاريخ مصر الطويل قيل هذه الفترة يجد مصر تقع فريسة لدولة البطالمة ، ثم الدولة الرومانية من بعدها إلى أن آلت إلى الإمبراطورية البيزنطية ، وان المتأمل لتاريخ مصر خلال تاريخها العريق قبيل قدوم العرب إليها ليجدها تموج بتيارات استعمارية المقصود منها استنزاف خيرات مصر وذل أبنائها ،وتدهور أحوالها على كافة أنشطة الحياة العامة

ونستعرض الأحوال الدينية فيها ، فقد عرفت مصر المسيحية منذ القرن الأول الميلادي، وانتشرت المسيحية بكل أرجاء : مصر خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين، الأمر الذي جعل أباطرة الروم الوثين يضطهدون الشعب المصري وذلك ابتداء من عهد الإمبراطون سفيرنيوسن. (193-211م) الذي قام بحملات اضطهاد واسعة ضد المسيحيين والمسيحية في كل أرجاء الإمبراطورية والزم المصريين إلى تقديم القرابين إلى الآلهة وذلك للتأكد من رجوعهم عن اعتناق الديانة المسيحية .

واستمرت هذه الأوضاع من اضطهاد للمصريين حتى ولى الإمبراطورية الإمبراطور دقلديانوس (284-305 م) الذي ضرب ابشسع الأمثلة في اضطهاد المسيحيين عامة ، والمصريين خاصة ،. الأمر الذي جعل للكنيسة المصرية تبدأ تقويمها المعروف بالتقويم القبطي أو تقويم الشهداء بالسنة الأونى من حكم الإمبراطور دقلديانوس سنة ٢٨4م.

واعترف الإمبراطور قسطنطين الأول (323 – 337م) بان المسيحية إحدى الديانات التابعة للإمبراطورية البيزنطية بعد أن اظهر احترامه لهذه الديانة الجديدة ، ثم إعترف بها الامبراطور ثبروثيوس العظيم دينا رسميا للإمبراطورية سنة ٣٩٢م ،أعلن هذا الإمبراطور تحريم عبادة الأوثان داخل الإمبراطورية، وتنفس المسيحيون الصعداء ، ولكن ثار الجدل والنزاع حول طبيعة المسيح واتخذ أغلب الأباطرة سياسة.منافية لسياسة المصريين حول المسيح وطبيعته ولذلك اشتد النزاع مرة أخرى بين الأباطرة والمصريين.

وتمسكت كنيسة الإسكندرية منذ منتصف القرن الخامس الميلادي وكان مبدأها بأن المسيح طبيعة واحدة ، إما كنيسة القسطنطينية فقد كان مبداها بأن للمسيح طبيعيتين ، ومن جراء ذلك جاء مؤتمر خلقدونية بآسيا الصغرى (451م) وأيد مبدأ الطبيعيتين وقرر أن مذهب الطبيعة الواحدة. ضربا من ضروب الكفر والإلحاد.

عارض الشعب المصري قرارات مؤتمر خلقدونية ، وأطلقوا على أنفسهم "الأرثوذكسيين" بمعنى أنهم أتباع الديانة الحقة ؛ أما اتباع الكنيسة البيزنطية فاتخذوا لقب الملكانيين وذلك لموافقتهم مذهب الإمبراطور القائل بالطبيعيتين للمسيح.

وتعرض المصريون للاضطهاد الديني مرة أخرى من قبل الأباطرة البيزنطيين وذلك لمعارضتهم المذهب الإمبراطوري ، وقاوم المصريون هذا الاضطهاد بالهروب إلى المعابد والأديرة بالجمال والصحراء وتركوا حقولهم ومنازلهم وقراهم، ثم حل هرقل إمبراطور للإمبراطورية البيزنطية سنة 610 م ، ووضع المصريون آمالهم على الإمبراطور هرقل لتخليصهم من هذا الاضطهاد ؛ إلا أن الفرس استولوا على مصر سنة 616م وتركوا المصريين في حرية دينية عظيمة طوال فترة حكمهم لمصر ؛ إلا أن هرقل تمكن من طردهم من مصر سنة 629م .

واستعمل هرقل الاضطهاد الديني على عاتق المصريين الذين لم يوافقوا على تعليمات هرقل بشأن طبيعة المسيح؛ و استعمل قيرس (المقوقس) اشد أنواع التعذيب والتنكيل ضد المصريين ولمدة عشر سنوات متتالية ذاق المصريون البشع أنواع التعذيب و الاضطهاد و هرب البطرق بنيامين إلى الصحراء و معه المصريون وانتشرت الفتن والفوضى في ربوع مصر.

جاهد الحاكم البيزنطي قيرس لجمع المصريين بكل أنواع التهديد والتنكيل تارة والتودد للمصريين تارة أخرى ، وذلك لضم المصريين إلى دولة البطالمة ولكن جهوده باءت بالفشل ، وتمسك المصريون بمذهبهم الديني وأعلنوا العصيان على هرقل والمقوقس ، وظهرت مصر بقوميتها ودينها الخاص بها وشخصيتها الفريدة خلال الاضطهاد الديني ، والذي فشل في إخضاع المصريين المذهب الإمبراطور ؛ وقد أزال المقوقس كل الصلات بين المصريين والبيزنطيين ، وتطلع المصريين لخلاص من الحكومة البيزنطية ؛ الأمر الذي مهد السبيل الفتح الإسلامي .

أما عن الأحوال الاجتماعية فكانت من أهم العوامل التي أسرعت بالقضاء على الحكم البيزنطي، فقد كان الشعب المصري يمر بأحوال اجتماعية في غاية القسوة والظلم ؛ فتجد الاسكندرية كانت مدينة يونانية غريبة عن الشعب المصري، واختلفت تماما عن طباع المصريين ، كما اشتهرت بالبذخ والثراء والترف، وكانت علي العكس تماما عن بقية بلدان مصر، وقراها التي كانت تحت وطأة أسر قوية وبقية الزراع من الشعب المصري بمثابة رقيق أو اقنان ، وأصبح المصريون غرباء في. أرضهم يقدمون خيراتها لمستعمريهم تحت وطأة الظلم والقمع والطغيان .

كما أظهر البيزنطيون ورجال جيشهم تصلفا عظيما في جمع الأموال من الشعب المصري بحجة الضرائب وجمعها بالقوة والسوط، كما سيطر التجار الروم واليهود على التجارة المصرية مستغلين سطوة

هؤلاء الجنود البيزنطيين وقضوا على منافسة التجار المصريين لهم بالفزع والجبروت، وبذلك كسدت التجارة المصرية وتوقفت الأرض عن العطاء ،. وانتشر المرض والوباء بالديار المصرية، وعلى الرغم من ذلك ظهرت الروح المصرية القوية وازدهرت اللغة القبطية وزاحمت اللغة اليونانية، وتمسك المصريون بها على الرغم من الشدة والاضطهاد .

ومن جهة الأوضاع الاقتصادية فكانت على درجة كبيرة من الفساد والتدهور ، فقد وضع الرومان والبيزنطيون مصر كسلة تمدهم بالخبز والقوت ، وحرص البيزنطيون على المحافظة على هذه الهبة وكانت علاقتهم بمصر علاقة. استعمارية بحتة ، فقد استعملوا كافة الوسائل لتعويض مصالح المصريين ، بل سيروها لصالحهم فقط، واستعملوا كل الوسائل للسيطرة على موارد مصر ، واستعملوا ابشع أنواع التنكيل بالفلاحين المضربين لتحصيل الضرائب، وذهب الفلاح المصري لوضع نفسه تحت حماية أمير من الأمراء البيزنطيين أملا للنجاة ولكن بدون جدوى .

إذ بمرور الزمن أصبحت الأرض ملكا للأمير وصارالمصري رقيقا أو قنا، وأصبحت ارض مصر خلال القرن السابع الميلادي اشبه بنظام الإقطاع ، وقد قسم البيزنطيون مصر الى خمسة أقسام إدارية كبرى لسرعة وإحكام السيطرة عليها وهي : الإسكندرية وشرق الدلتا وغرب الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا. وكان يحكم كل إقليم حاكم يعرف بالدوق يجمع بين يديه الحكم العسكري والمدني وتحت نفوذه

القضاء والشرطة والإدارة أيضا؛ وهذا النظام أدي إلى إحكام السيطرة على المصريين و مواردهم ، مما أدى إلى هروب الشعب المصري وتشتته من ظلم وجور البيزنطيين ؛ وكان ينظر الخلاص من الله على يد قوة أخرى أقوي من البيزنطيين ، فكان ينظر إلى الفرس ؛ ولكن الله أراد في خلاصة على يد قوة العرب المسلمين .

ولا شك أن الناحية العسكرية أو الحربية لمصر في هذه الآونة كانت موزعة على كل إقليم ، فكان لكل دوق أو حاكم فرقته العسكرية الخاصة به ، ويدافع عن منطقته أو اقليمية فقط ، ودخل هذا الجيش كثير من المصريين المجندين في كل إقليم ، وذلك بعد أن سمحت السلطات البيزنطية للمصريين بالانخراط في سلك الجندية كل حسب اقليمة ، وكانوا يجندون بالاقتراع أو التطوع أو الوراثة ، وكان جيشا مهمل التدريب لان أفراد الجيش كان يسمح لهم بالاشتغال في الحرف والأعمال اليومية بجانب الجندية ؛ ولذلك ضاعت الناحية الحربية بسبب كثرة الفرق العسكرية وعدم ولائها للروم ، وعدم ارتباطه بقائد معين ، ولذلك سهل الأمر على العرب عندما فتحوا مصر سنة 21 هـ /642م .

ثانيا : أحداث الفتح الإسلامي العربي لمصر:

ظهرت الدعوة الإسلامية على يد محمد صلى الله عليه وسلم و قام بالهجرة من مكة إلى المدينة ، واستطاع أن يوطد .اركان هذه الدعوة بالمدينة المنورة في خلال الخمسة أعوام الأولى من هجرته وأن

يجمع المسلمين تحت لواء الإسلام ؛ واستطاع أن يعقد صلحا مع قريش في مكة يسمى بصلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة ؛ وقد أفسح هذا الصلح المجال النبي علية السلام أن يبعث بسفاراته إلي رؤساء وأمراء وملوك العالم يدعوهم إلى الإسلام ، فبعث الصحابي حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب مصر ؛ وشجاع بن وهب الأسدى إلى كسري وبعث بدحية بن خليفة إلى قيصر ؛ وعمرو بن العاصي إلياميرى عمان .

وقد غادرت سفارة حاطب بن أبي بلعته المدينة في ذي الحجة سنة 6 هـ ، ووصلت مصر سنة 7هـ/629م ، وهنا احسن المقوقس مقابلة هذه السفارة مثلما أحسن هرقل لقاء دجية بن خليفة ؛ ورد المقوقس هذه السفارة إلى النبي علية السلام بأحسن رد وأهداء بهدايا منها بعض العسل (من إنتاج بنها) ، وثياب القباطي ؛ كما أرسل إحدى النساء ماريا القبطية فدية إلى النبي علية الصلاة والسلام ؛ وتركت هذه السفارة رابطة قوية بين مصر والعرب.

ومهدت للفتح العربي الإسلامي لمصر وتناقل الرواة الأحاديث النبوية التي أشار فيها الرسول علية السلام إلى أن الله عز وجل سوف يمكن المسلمين من فتح مصر، وبعض الأحاديث بوصيته علية السلام بأهل مصر خيرا، وأن لأهلها ذمة ورحمة ؛ حيث أن أم إسماعيل بن إبراهيم هاجر من مصر ، مارية زوج النبي من مصر أيضا ؛ ومن أهم أحاديث الرسول علية السلام بالوصية على أهل مصر" إذ فتح الله

عليكم فاتخذوا منها جندا كثيفا " فذلك الجند خير اجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم يا رسول الله با ؟ قال لأنهم وازواجهم في رباط إلى يوم القيامة "؛ وهناك أحاديث كثيرة في ذلك الشأن .

أضف إلى ذلك معرفة كثير من الصحابة بأمور مصر ، لخروجهم إليها بقصد التجارة ومنهم عمرو بن العاص ، الذي كان يأتى إلى مصر للتجارة، وكان أيضا يقابل تجار مصر في بلاد " الشام أثناء رحلة الصيف في فلسطين ؛ وروي بن عبد الحكم رواية تعلق بعمرو بن العاص قبل ظهور الإسلام ؛ إذ انه كان ببيت المقدس وأنه تصادق مع أحد رجال الدين المصريين بعدما قدم له عمرو بن العاص بعض الخدمات الجليلة ؛ فدعاه المصري لزيارة مصر ليرد له بعض من چمائله ، ووصف له خيراته مصر ورائها وروعة أهلها.

وتشوق عمرو لرؤية مصر فذهب مع الرجل إلى مصر، وقام الرجل باطلاع عمرو على معالم. مصر وقوتها ؛ ثم دعاه إلى الإسكندرية و هي عاصمة مصر آنذاك وذلك لحضور حفلا سنويا يقام يجيتز يوم المدينة ، فكان يقوم أبناء علية القوم في آخر الحقل بإلقاء كرة ذهبية إلى المشاهدين أو الجماهير، ومن تقع في حجرة الكرة، فكان يستبشر بأنه سيكون حاكم مصر في المستقبل ؛ وفي نهاية الحفل، وقذف أحد الشباب الكرة. فإذا هي تقع في حجر عمرو بن العاص ، وكان جالسا بين المشاهدين بجوار صديقه

المصري، فرأى ذلك عجب ودهشة المصريين، وقالوا : ما كذبتنا الكرة ابدا ، واستبعد الجميع هذا العربى ان يحكم مصر .

ونترك جانب الراويات والتوقعات وننصل الأحداث الفتح العربي لمصرالحقيقية ؛ فعندما توفي النبي علية السلام، وتولى الخلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، قام بفتح بلاد الشام و أرسل أربعة جيوش لهذا الغرض، وكان من أهم قادة الجيوش القائد عمرو بن العاص الذي التقى بالقائد البيزنطي الأرطبون :" استطاع القادة العرب أن يحققوا نصرا مجيدا على الروم في أجنادين ؛ وفر : الأربطون إلى مصر ليعيد أوراج قواته استعدادا لمجابهة المسلمين. .

وقام (صفرونيوس) بطريق. بيت المقدس وتسليم المدينة إلي . الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي أمنه على ماله وروحه وعامة المسيحيين ؛ وهنا اجتمع عمرو بن العاص مع الخليفة عمر الخطاب بمنطقة الجابية بالقرب من دمشق وتقع على مرتفعات الجولان الآن ، وذاك قبل ذهاب عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس واستلام المدينة من البطريق صفرينوس؛ وقام عمرو بن العاص بتوضيح ضرورة فتح مصر وخاصة أن ارطبون الروم .قد ذهب إلى مصر ويدبر المتاعب الحربية العرب؛ بالإضافة إلى خطورة تجمع الروم بمصر وأهميتها الحيوية بالنسبة للروم ،فكانت المخزن الروماني الذي يمدهم بلغلال ؛ وأن استلاه المسلمين على مصر سوف يضرب اهم عون للبيزنطيين في منطقة الشرق عامة .

أعلن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه موافقته على فتح مصر أمر غمرو بن العاص بأربعة آلاف جندي عربي وقال له : أني مرسل لك كتابا فان ادراكك وأمرتك فية بالانصراف فيه و عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف وان دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره ، وسار عمرو بن العاص إلى مصر سنه 18 هـ/639م ووصل العريش ومنها إلى الفرما: (شرقي بور سعيد الحالية) ؛ ويقال أن كتاب عمر بن الخطاب وصل عمرو بن العاص وهو برفح يتسلمه من الرسول حتى قرب العريش فأخذ الكتاب وقرأه على جيشه وأمرهم بمواصلة فتح مصر

لقي عمرو بن العاص مقاومة في مدينة الفرما من الجنود و البيزنطيين استوقفته شهرا ولكنه هزمهم في سنه ١٩ هـ / 640م ثم زحف نحو بلبيس ففتحها، بعد شهرين من المقاومة أيضا ؛ وذكر المؤرخون أن ابنة المقوقس حاكم مصر البيزنطي كانت موجودة في مدينة بلبيس وقبض عليها عمرو بن العاص ولكنه أعادها إلى أبيها بعد أن أكرمها الأمر الذي أدى إلى إعجاب القبطي بعمرو بن العاص ثم تقدم عمرو بن العاص أم دنين (تقع شمال حصن بابليون) ، حيث نشب قتال شديد بين العرب والروم، وأرغمهم عمرو على التحصن بحصن بابليون .

وكانت نابليون من أعظم مراكز مصر وذلك لموقعها على رأس الدلتا وكونها على الطريق الموصل إلى مدينة الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الوقت ؛ ولذلك طلب عمرو بن العاصن من الخليفة

عمر بن الخطاب العون العسكري، فأرسل له أربعة آلاف .. جندي يقودهم أربعة هم : الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت : ومسلمة بن مخلد والمقداد بن الأسود، ويقال أن العون بلغ اثنا عشر ألف رجلا ، واستطاع العرب بعد معارك شديدة وحروب متكررة ، وحاصر العرب بضعة شهور وحدثت مفاوضات بين الفريقين ؛ و أصرالعرب على دخول الروم في الإسلام أو دفع الجزية أو القتال ؛ رفض الروم ذاك واستؤنف القتال واستبسل الزبير بن العوام في فتح حصن بابليون بشجاعة فائقة ؛ حتى وافق الروم على الصلح ودفع الجزية ، وتم عقد معاهدة بين الروم والعرب اجازها الخليفة عمر بن الخطاب وأهم شروط هذا الصلح هي :-

1. أن يدفع كل قبطي للعري دينارين ويعفي منها النساء والأطفال والشيوخ
2. للعرب المسلمين حق الضيافة على المصريين لمدة ثلاثة أيام عندما ينزل المسلمون عليهم
3. تبقى للروم أرضهم وأموالهم وتعهد المسلمون بالمحافظة عليها

وعندما أبلغ المقوقس حاكم مصر شروط هذا الصلح إلى الإمبراطور البيزنطي رفضها زفضا تاما واعتبرها مهانة في حق الإمبراطورية البيزنطية التي لم تعهد مثل هذا الصلح مع الشعوب التي حربتها ، بل وبخ المقوقس على قبوله الصلح ؛ وأمره بقتل العرب فورا؛ ولكن المقوقس راي المسلمين قد استولوا على الحصن، وقام القائد العربي عمرو بن العاص بالمسير نحو عاصمة مصر الإسكندرية قاصدا

الاستيلاء عليها ؛ وانه استولى على منطقة عين شمس. واشرف على المنطقة الشرقية من مصر السفلي، واستطاع أن يشرف على السفن والبضائع التي تنتقل بالنيل إليها، وقام عمرو بفتح بلاد الطرافة ونقيوس وكوم شريك و سفطيس والكربون، وفرت الحامية الرومانية من هذه البلدان إلى الإسكندرية بعدما تركوها للعرب .

وصل العرب أسوار مدينة الإسكندرية بعدما فتحوا منطقة غرب الدلتا و استولوا عليها ؛ كان المقوقس داخل المدينة ومعه كبار القادة الروم ؛ واحكم عمرو بن العاص الحصار على الإسكندرية وكان البيزنطيون يعلمون مدى أهمية هذه المدينة التجارية والحربية والبحرية حتى قيل أن هرقل إمبراطور الروم أراد الخروج بنفسه الحرب المسلمين بالإسكندرية ولكنة مات في 11 فبراير سنة 641م الموافق 20هـ .

استبسل الروم في الدفاع عن المدينة الأمر الذي جعل المسلمين يحاصرونها أربعة عشر شهرا مما أقلق الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الجيش العربي ، ولكن موت هرقل وتولى العرش الإمبراطورة مارتينا زوجته وصية على ابنة الطفل هرقل التيوس ، وانقسام القادة بالمدينة على أنفسهم ؛ وفضل الكثير منهم الصلح مع المسلمين وعلى رأسهم المقوقس الذي له دراية بقوة المسلمين وشدة بأسهم ؛ ولذلك. وافقت الإمبراطورة مارتينا على الصلح مع العرب ، حتى تتفرغ لإخماد الفتن الداخلية والنزاع على عرش الإمبراطورية بالقسطنطينية.

طلب قيرس الصلح من عمرو بن العاص بعد أن ذهب إلى بابليون ، ولنك عرفت هذه المعاهدة بمعاهدة بابليون الثانية تمييزا لها عن المعاهدة. الأولى التي لم تتم ! وأيضا أطلق على هذه المعاهدة الثانية معاهدة الإسكندرية لأنها كانت تخص قادة وشعب الإسكندرية ؛ وعقدت هذه المعاهدة في نوفمبر سنة ٢٠هـ 641 م؛ وأهم بنودها هذه الاتفاقية ما يلي :-

1. أن يدفع كل قبطي جزية قدرها دينارين مع إعفاء غير القادرين على الكسب من الشيوخ والنساء والأطفال
2. مدة الهدنة إحدى عشر شهرا
3. أن يكف العرب والروم عن القتال
4. ان يحترم العرب الكنائس والطقوس المسيحية
5. ان يبقى اليهود في الإسكندرية .
6. ألا يحاول الروم استرداد مصر او الهجوم عليها .
7. اان يحتفظ المسلمون رهائن من الروم عند 150 جنديا و و مدنيا.
8. أن يرحل الروم من مصر بأموالهم وممتلكاتهم

ومن ذلك الوقت أصبحت مصر ولاية إسلامية عربية تابعة . للدولة العربية بالمدينة المنورة وأنسلخت عن الدولة البيزنطية والقسطنطينية ؛ واصبح عمرو بن العاص اول والي عربي مسلم عليها من قبل الخليفة

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ ورحب الأقباط المصريون بالحكم العربي الجديد ، لمصر بعد كرهوا الرومان الذين استغلوا مصر أسوأ استغلال وتعالوا على المصريين ووقف اليهود على الحياد بين العرب، والروم، ولذلك .تركهم عمرو بن العاص، يقيمون بالإسكندرية في سلام وأمان .

واحسن المسلمون معاملة الأقباط كما أحسنوا معاملة المسيحيين ببلاد الشام وفلسطين وبالتالي رحب هؤلاء بقدوم العرب المسلمين إلى مصر، وذكر ابن عبد الحكم صورا كثيرة لترحاب القبط بالعرب ومنها أن أسقف مدينة الإسكندرية بنيامين عندما علم بقدوم العرب إلى مصر لفتحها كتب إلى القبط يامرهم بحسن التعاون مع القائد العربي عمرو بن العاص وان الروم قد أنقطع ملكهم على مصر ؛ تعاونوا مع عمرو في الفرما، وأن القبط الذين كانوا بحصن بابليون خرجوا مع عمرو بن العاص عندما ذهب لفتح الإسكندرية وقاموا بإصلاح الطرق والجسور والأسواق ومنهم من كان يدله على اقرب وافضل الطرق نحو الإسكندرية.

وكان من أهم عوامل النصر للعرب على الروم وتمكينهم من فتح مصر هو .تصميم. القبائل العربية التي خرجت من الحجاز النشر الإسلام وكانت بمثابة كتائب بهذا الجيش ؛ بالإضافة إلى ترجيب أهالي مصر بالعرب. من أثر اضطهاد الروم لهم ؛ وتفكك الامبراطورية الروم أواخر أيام هرقل، وتفوق العرب في القتال . والرماية وحبهم لقتال والفروسية بعكس الروم الذين يميلون إلى . الدع والسكون ، أضف إلى ذلك كتب عمرو بن العاص للأقباط عهدا بحماية كنيستهم ، وكتب أمان للبطريق بنيامين وأعطى له وظيفته

مرة بعد أن نفاه الروم ثلاث عشر سنة واستقبله عمرو استقبالا رائعا بعد عودته إلى الإسكندرية ، وترك العرب الأرض. للمصريين وتعهدوا لهم بالحماية واهتموا بمشاريع الري ونظموا القضاء والضرائب وبنوا مقاييس على النيل.؛ ودفعوا الظلم البيزنطي عن كاهل القبط ؛ وأطلقوا لهم الحرية الدينية .

امتد نفوذ العرب بعد سقوط الإسكندرية نحو داخل مصر .وسائر مدنها، بل مدوا نفوذهم نحو برقة لتأمين مركزهم في مصر ؛ فقام عمرو بن العاص بالمسير إلى برقة وفتحها وفرض على أهلها الجزية ، وفي سنة ٢٢هـ تقدم عمرو نحو طرابلس وقيل إنه غزاها ٢٣هـ وفتحها أراد التقدم نحو بلاد المغرب ولكن الخليفة عمر بن الخطاب قد نهاه عن ذلك .

وايضا بعث عمرو قائده عبد الله بن سعد. لفتح بلاد النوبة وذلك لتأمين حدود مصر الجنوبية في سنة ٢١هـ ولكنه رجع دون أن يفتحها ؛ وعاود المحاول سنة ٣١هـ وفتحها زمن الخليفة عثمان بن عفان ووصلت حملته مدينة دنقلة عاصمة بلاد النوبة ، وبعد قتال مرير عقدت هدنة بين المسلمين وملك النوبة عرفت بالبقط ، وكانت عبارة عن معاهدة تحدد المعاملات السياسية والاقتصادية بين العرب في مصر والنوبة المسيحية، وأهم شروطها ألا يعتدي أي طرف على الآخر، وان يدفع النوبة إلى العرب حكام مصر عددا من الرقيق سنويا ، على أن تعطى مصر سنويا كمية من القمح والعدس ومنتجات مصر كل عام .

عاود الروم الهجوم على مصر سنة 25هـ /645م فقد هاجموا مدينة الإسكندرية واستولوا عليها وطردوا الحامية العربية منها ؛ وكان ذلك خلال عهد الإمبراطور البيزنطي قيسطانز الثاني ، وكان الحاكم على مصر هو عبد الله بن سعد من قبل الخليفة عثمان بن عفان ؛ ولذلك طلب أهل مصر من الخليفة، سرعة إرسال عمرو بن العاص لطرد الروم من مصر؛ وبالفعل وصل عمرو وهاجم الروم وأجلاهم عن الإسكندرية ورجعت مصر ومدينة الإسكندرية إلى المسلمين نهائيا.

وهنا نعرض للموضوع أختلف فيه المؤرخون والرواة القدامى والمحدثون الا وهو حريق مكتبة الإسكندرية ، وهوالحريق الذي شب أثناء حصار المسلمين للمدينة ؛ وأول من ذكر قصة حريق مكتبة الإسكندرية هو المؤرخ عبد اللطيف البغدادي صاحب كتاب الإفادة والاعتبار وذكر أن عمروا أحرق المكتبة بتصريح من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وزاد هذه القصة افتراءات وأباطيل مؤرخ أخر جاء بعد عبد اللطيف البغدادي وأسمه أبو الفرج بن طبيب يهودي اسمه(قارون او هارون) وله كتاب بأسم تاريخ الدول"، واتهم عمرو بن العاص إنه أحرق : المكتبة ؛ ووزيع كتبها علي الحمامات في مدينة الإسكندرية لاستعمالها كوقود؛ وكلها أباطيل و أكاذيب غير منطقية لا يقبلها العقل بالنسبة لعمرو بن العاص .

وان هذه الأسطورة لا أساس لها من الصحة أو السند التاريخي، فضلا عن إنكار التاريخ الحضاري للمسلمين لمثل هذا التصرف ؛ لأن المسلمين شجعوا العلم والعلماء من كافة الملل والأديان، ولم يذكر

المؤرخون العرب من أهل الثقة والأمانة مثل الطبري وابن الأثير والبلاذرى وبن عبد الحكم والكندي وغيرهم هذه الحادثة ؛ والحقيقة إن مكتبة الإسكندرية قد قل شأنها قبل الفتح الإسلامي ونقل أغلب، مجلداتها إلى روما ، وقد يكون قد اختلط الأمر على هؤلاء الكتاب فظنوا أن الحريق الذي أصاب المكتبة سنة 48ق م عند. قدوم يوليوس قيصر إلى الإسكندرية. لمعاضدة كليوباترة ضد أخيها ، فاعتقدوا ذلك حدث زمن عمرو بن العاص ؛ ولم توجد أي وثيقة تاريخية تثبت ذلك الأمر.

الفصل الثاني

انتشار الإسلام والعروبة في مصر

جاء الإسلام كثورة إنسانية للمجتمع الإنساني عامة ، ولم يكن ثورة محلية خاصة بالمجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية فقط ؛ إنما جاء الإسلام لعلاج المشكلات الإنسانية في العالم بطريقة موضوعية تماما ، لا دخل للمصادفة ولا الرغبات الشخصية منها إنما ليعالج أزمة العصر في كافة المجالات مثل الأحوال السياسية والروابط الاجتماعية والأدبية والنظم الاقتصادية والعلاقات الإنتاجية ؛ حتى يصل إلى الهدف السامي الحقيقي وهو إنقاذ البشرية مما هي فيه من براثن المجتمعات القديمة الظالمة .

وجاءت الفتوحات الإسلامية بالهدى ودين الحق لتهدي الأرواح الضالة وتنشر الحق والعدل والمساواة ضد الباطل والظلم والفساد ؛ وظهر الإسلام كحتمية لضرورات إنسالية عامة ؛ لأن أهالي البلاد المفتوحة كانوا يدينون بطاعة اسمية لهرقل أو كسري ،.ولا يحرصون أبدا على دين لا يفقهون فيه ؛ وأن الإسلام ظهر كثمرة جاءت في موعدها الطبيعي ؛ وأقبل عليه الناس إقبالا عظيما حتى يخلصهم مما هم فيه من الذل والهوان ،وحتى يشعرون بكرامة النفس وعظمة الأخلاق .

دخل الإسلام مصر سنة 20هـ/640م أي بعد سبع سنين فقط من تحركه خارج الجزيرة العربية ، وكان إيذانا ببدء عملية كبرى غيرت من كيان الشعب المصري بالتدريج وأتت ثمارها خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ؛ فكانت سياسة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان يكون للعرب امة متماسكة و رب واحد بعيدة عن الاختلاط بالأجانب فمنعهم من فلاحة الأرض ، وأمرهم أن يقيموا في مراكز معينة مثل

الفسطاط في مصر ، وهدف عمر من ذلك أن يتفرغ العرب للإدارة والأعمال العسكرية ، وأن يكون كل مسلم جنديا من جنود الإسلام، وأن يحصل من بيت المال عطاء مقابل خدمته العسكرية.

وحرم عمر على الجنود العرب امتلاك الأرض أو زراعتها أو الاختلاط مع أهالي البلاد المفتوحة ليجعل منهم طبقة عسكرية ممتازة ، ألا يركنوا إلى الدعة والترف والرفاهية ؛ والا تضيع اللغة العربية لغة القرآن بين شعوب هذه البلدان ولغاتها المختلفة ؛ كما اشترط عمر بر الخطاب عند بناء مدينة الفسطاط على القائد عمرو . بن العاص ألا يبنوها في مكان يحول بيني وبينهم بحرا وتظل معسكرا للجنود العرب ، ولا يختلطون بأهالي البلاد حتى يحافظ على الجنس العربي وعدم اختلاط الأنساب ؛ ولذلك سارع أهالي البلدان إلى الدخول في الإسلام وتعلم العربية للاختلاط بطبقة العرب والحصول على نفس الحقوق والواجبات التي تمتع بها العرب.

ولكن في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج العرب من المعسكرات و اقتنوا الأرض والضياع وتحولت المعسكرات أيضا إلى مدن عامرة وتعلم العرب الزراعة وسائر المهن وسكنوا البيوت والقصور بدلا من الخيام ، و اختلطوا. بغيرهم من السكان المحليين ، وشارك أهالي الأنصار العرب في الأعمال و أقبل العرب على امتلاك الجواري و العبيد و الإماء اللاتي اتخذهن للتسرى و الإنجاب

وبالإضافة إلى عتقهم بعد إعلان إسلامهم ، فيصبحون أحرارا مثل أي شخص في المجتمع العربي الإسلامي .

(1)بناء مدينة الفسطاط:-

بعد أن استتب الأمر للعرب في مصر، أراد عمرو بن العاص أن يتخذ مدينة الإسكندرية مسكنا للعرب وكتب بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي رد علية قائلا " إني لا أحب أن تتزل- منزلا يحول بيني وبينهم ماء في شتاء ولا صيف " ، فتحول عمرو من الإسكندرية إلى موقع مدينة الفسطاط، وسميت بهذا الاسم لأنه عندما توجه عمرو بن العاص لفتح الإسكندرية أمر الجند بنزع فسطاطه (خيمته) ، " فإذا فيه يمام قد أفرخ، فأمر عمرو جنده بتركه ، فلما رجع المسلمون من الإسكندرية بعد استيلائهم عليها ؛ قالوا أين ننزل ؟ فقالوا : فسطاط عمرو أي بجوار خيمة: عمرو بن العاص التي كان قد تركها .

وانضمت القبائل العربية الممثلة في جيش عمرو بن العاص إلى بعضها البعض ، وتنافسوا في المواضع، فولى عليهم معاوية بن خديج التجيبي وشريك بن سمئ الغطريفي وعمرو بن قحزم الخولاني وحيويل بن ناشرة المعافرى، بان يشرف على خطط السبائل بالمدينة ويفصلوا بينهم في المواضع أو المنازل، وكان ذلك في سنة ٢١ هـ ، واتخذت كل قبيلة عربية خطة خاصة بها، وكانت بعض القبائل

تنزل متحالفة مع قبائل أخرى في خطة واحدة مثل خطة أهل الراية ، وهم جماعات مختلطة من قريش ومزينة والأنصار وخزاعة واسلم وغفار وجهينه وثقيف ودوس وعبس وجرش وليث بن بكر والعتقاء.

وكانت لقبيلة مهرة خطة(حارة او شارع) بالفسطاط ، وخطة لكل من القبائل آلاتية : قبيلة لخم ، وقبيلة تجيب ، و قبائل اللفيف، وأهل الظاهر، وهمدان وبلى والصدف وخطة للفارسيين وخطة لمسحج وسبأ وغطيف ووعلان ويحسب ورعين وذى الكلاع والمعافر والرحبة ووائل وقبض والحمروات الثلاثة وهم قبائل روبيل ، وبنى نبه ، وبني الازرق ، وأصبحت مدينة الفسطاط بمركزا إداريا وحربيا للعرب في مصر منذ بنائها ، كما كانت مركزا دينيا أيضا ؛ وكان هذا الموقع فضاء ومزارع يحده شرقا جبل المقطم وغربا نهر النيل وجنوبا بركة الحبش وشمالا جبل يشكر.

كما اختط عمرو بن العاص، المسجد الجامع الذي عرف باسم تاج الجوامع العتيق، وعرف أيضا باسم جامع عمرو بن العاص وكان بمثابة مدرسة إسلامية تنشر تعاليم الدين الإسلامي و مركزا للقضاء ، وبالإضافة إلى إقامة الصلوات اليومية والجمع، وذكر بتلر أن كلمة فسطاط مأخوذة من اللفظ اللاتيني fossatum أي الحضن أو المعسكر ، كما كانت كلمة فسطاط بالعربية تعني المعسكر او الجماعة وأن العرب، أطلقوا عليها هذا الاسم من واقع كلماتهم العربية .

بنى العرب الفسطاط في بداية نشأتها بالطوب اللبن ، وكان كل سكن لا يزيد عن طابق واحد وأراد خارجة بن حذافة أن يرتفع بالبناء وشيد غرفة فوق سكنه ، وقد بلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب الذي أمر عمرو بن العاص بهدم هذه الغرفة أو الحجرة حتى لا يكشف خارجة عورات جيرانه ، وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان اتسعت المباني والمنشئات بالفسطاط وشيد عبدالله بن سعد قصرا فخما أطلق عليه قصر الجن ، وقام مروان بن عبد الحكم ببناء دارا كبيرة له في مصر سنة 65هـ /684م ، كما بني عبد العزيز بن مروان دارا أطلق عليها دار الذهب .

وكان من أهم معالم الفسطاط الميادين والأسواق الواسعة والحمامات الكثيرة ودور الصناعات المتسعة ، ووصفها " الاصطخري المتوفى 380 هـ بان بيوتها تتكون من اربع طبقات او خمس ويسكن الدار الواحدة حوالى مائتي نفس ، وفى خلال كانت منازلها مرتفعة جدا وتراوح بين سبع طبقات واربع عشر طبقة وشوارعها تضاء بليل والنهار ، لان ارتفاع المنازل كان يحجب ضوء الشمس بالنهار ، وكان بها ستة وثلاثون الف مسجد وثمانية الاف شارع ، وألف ومائة وسبعون حماما وذلك خلال القرن الخامس الهجري .

وظلت الفيسطاط مزدحمة بالسكان خلال عصر الولاة والعصور الأخرى التي أعقبت هذا العصر و وساحلها مزدحما بالمراكب الداخلة والخارجة والراسية ، وبها دار لصناعة السفن، وعلى الرغم من أن

هذه المدينة احرقت سنة ١٣٢هـ/ 750م على يد صالح بن على القائد العباسي عندما استولى على مصر وقتل أخر خلفاء الامويين مروان بن محمد كذلك تعرضت للسيلب والنهب في نهاية الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ/905م على يد محمد بن سليمان الكاتب الذي أسقط الدولة الطولونية ، وأطلق العنان لجنوده لتخريب ونهب مدينة الفسطاط .

أما عن أهم معالم هذه المدينة فكان مسجد عمرو بن العاص والذي بناه عمرو سنة 21هـ ، على شاطئ نهر النيل ، في منطقة زراعية ، وقد أشرف على تحديد القبلة ثمانون صحابيا ، وقام بعمل المنبر لهذا المسجد رجل قبطي يسمى بقطر النجار من أبناء مدينة دندرة بصعيد مصر ثم بدأ الولاة من بعد عمرو بن العاص في زيادة وتعمير الجامع ، وأول من زاد فيه الوالى مسلمة بن مخلد الأنصاري والى مصر من قبل الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان بنة 53 هـ/ 673م ، وزاد فيه بالاتساع وزينه وفرشه بالحصر.

وساهم في اتساع هذا الجامع الوالي عبد العزيز بن مروان في سنة 79هـ /698م ، والوالي عبدالله بن مروان سنة 89هـ/707م ، الذي رفع سقفه إلى أعلى ؛ والوالي قرة بن شريك العباسي هدم الجامع وأعاد تشيده من جديد وذلك استجابة لأوامر الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك سنة 93هـ/712م، وأضاف اليه مساحات كثيرة من الأرض المجاورة .

أما في خلافة سليمان بن عبد الملك فقد شيد اسامة بن زيد التنوخي متولى خراج مصر سنة 97هـ /715م شيد بيت المال التى اضيفت إلى الجامع في زمن الفاطمي العزيز بالله سنة 378هـ/988م ، ويعتقد أن هذا النوع من المباني كان مخصصا لأموال اليتامى ، وفي سنة 133هـ /750م ادخل صالح بن على زيادة على الجامع دار الزبير بن العوام ، ثم أضاف إليه موسى بن عيسى والي مصر من قبل هارون الرشيد سنة 175هـ / 791م زيادة كبيرة في مؤخرة الجامع ، وأضاف عبد الله بن طاهر مساحة جديدة إلى المسجد من ناحية الجنوب تعادل مساحته التي كان عليها.

وفي العهد الطولوني حثت إصلاحات وتجديدات في هذا المسجد وقام بها خمارويه بن أحمد بن طولون سنة 275هـ/888م ، اذ انفق عليه ستة آلاف وأربعمائة دينار، أضف إلى ذلك بعض الإصلاحات التي حدثت في العهد الفاطمى زمن الخليفة " العزيز بالله سنة 378هـ/988م ، وزمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة 403هـ/1012م ، بالإضافة إلى العديد من الإصلاحات التي تمت خلال العهد الأيوبي و المملوكي وكان هذا الجامع بة حلقات العلم بجانب أداء الفرائض الدينية، وكان به خلال القرن الرابع الهجري مائة وعشر حلقة ، وكان به مجالس للعلم السيدات، ومجالس القضاء، ومجالس القصصي وهو اقدم جامعة علمية بمصر.

(٢) دور القبائل العربية في تعريب مصر :

كان أول أهداف القبائل العربية التي صاحبت جيش عمرو بن العاص و الفاتحة لمصر هو سرعة نشر الإسلام والعروبة بين المصريين ؛ ووجد الإسلام في ترية عضبة لبذر بذور الإسلام و : العروبة معا بين أهالي مصر ؛ وكان أعظم المصريين قد أجهدهم طول الصراع الديني المذهبي بين الأرثوذكس والكاثوليك وبين اليعاقبة و الملكانيين و ارادوا الخلاص من هذا النزاع الدائم ، وراوا في اعتناق الإسلام فهو الخلاص من هذه المحن، من دفع الجزية التي فرضها العرب عليهم ؛ بل اعتنق بعض الروم الإسلام والذين فضلوا البقاء في مصر و عدم الرجوع إلى القسطنطينية ؛ وذلك أسوة ببعض الروم في الشام و الذين اعتنقوا الإسلام و دخلوا في زمرة المسلمين.

شمل الإسلام كل طبقات المجتمع القبطى ، حتى أن فريق من الرهبان دخلوا الإسلام مثل يوحنا أحد رهبان دير سيناء ؛ وكثر توافد العرب على مصر واختلطوا بأهلها جميعا ، شمل الإسلام كل طبقات المجتمع القبطي، حتى أن فريق من الرهبان دخلوا الإسلام مثل يوحنا أحد رهبان دير سيناء ؛ وكثر توافد العرب على مصر واختلطوا بأهلها جميعا ، تولت صلات التراحم والنسب بين العرب و القسبط ؛ و انتشر الإسلام أولا في المدن المصرية الكبرى اما الريف فكان ينتشر فيه ببطئ وهدوء وذلك عندما اقامت القبائل العربية فى الريف.

أخذ العرب على عاتقهم تعريب أهل مصر لغويا ، وكان من أهم عوامل الوصول إلى ذلك هو التعريب الجنسي وذلك بالمخالطة و مصاهرة الأقباط الذين يدخلون في الإسلام ، فكانت اللغة الرسمية في مصر اللغة اليونانية ومثت لغة الإدارة والحكام والثقافة والعلوم وأيضا لغة العبادة داخل الكنائس المصرية ، أما اللغة القبطية فكانت اللغة المتداولة بين الشعب المصري وعندما أصبحت اللغة العربية هي لغة الطبقة الحاكمة ، أقبل عليها المصريون على الرغم من بعدها من اللغة القبطية واليونانية ؛ . حتى أصبحت العربية هي لغة الدواوين في مصر منذ عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (86/66هـ) ، وأصبحت بمرور الوقت لغة الثقافة و الإدارة و الدين داخل العمل والبيوت.

.ونجد أن العرب بعد استيلائهم على مصر لم يتخذوا من أهلها عبيدا ولا سبيا ولا إماء ، ولكن عاملوهم الند بالند أي المساواة ، فكان القبطى عندما يدخل في الإسلام يتزوج من بنات هؤلاء العرب ، وبالتالي كان يزوج بناته لابناء العرب على قدم المساواة ؛ الأمر الذي أدى إلى كثرة دخول الأقباط في الإسلام في أمن وطمأنينة ؛ وذلك على العكس تماما لما حدث في صلح عبدالله بن سعد مع أهل النوبة ، فكانوا يقدمون هدية من عدة رؤوس منهم إلى المسلمين في كل سنة ، وكذلك كان أهل برقة يسمح لهم بأن يبيعوا من أبنائهم ما أحبوا في جزيتهم ، و الجدير بالذكر أن سياسة التسامح الديني التي اتخذها العرب تجاه الأقباط كانت من أهم عوامل ازدياد الصلات بين الفريقين ، فنجد أن الأقباط حلوا محل الروم الذين غادروا مصر

، و كان بالحكومة الإسلامية بالفسطاط كاتبان قبطيان لادارة مصر العليا ومصر السفلي وكان اسمهما اثناسيوس وإسحاق ، وذلك في عهد الوالي عبد العزيز بن مروان على مصر وأيضا كان والى الصعيد قبطيا واسمة بطرس، وقد أعتنق الإسلام بعد ذلك ، وكان حاكم مريوط قبطيا واسمه تاو فانوس ، وأيضا إلى الخليفة المأمون حين قدم إلى مصر مدينة بورة أحد الأقباط وسمح له بيناه كثير من الكنائس بهذه المنطقة

وسمح العرب بحرية الدينية للأقباط و سمحوا لهم ببناء الكثير من الكنائس في مختلف أرجاء مصر مثل الإسكندرية ، و حلوان ، حتى أن الفسطاط المدينة الإسلامية سمح لهم بيناء كنيسة بها فبنيت أول كنيسة بها أثناء ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري، ونجد ان معظم ولاة مصر من العرب سمحوا بإصلاح كثير من الكنائس واعادة بنائها ، مع السماح ببناء الكنائس فى كثير من بلدان مصر واعتبروها انها من مظاهر تعمير البلاد .

وعلى ذلك ذهب العرب ينشرون دينهم في أمن وأمان واتبعوا سياسة لاضرر ولا ضرار بمن أراد الدخول في الإسلام له في ذلك، ومن فضل الجزية وبقي على دينه له ذلك؛ فبعد أن اختط العرب مدينة الفسطاط، نجد أن بعض القبائل عبرت نهر النيل نحو الغرب واتخذت مكانا أطلقت علية اسم "الجيزة " أي من اجتازوا النهر، وكان أهم هذه القبائل قبيلة همدان اليمنية وبعض القبائل التي نقلت الإقامة بالجيزة

وذلك سنة 21هـ /641م ؛ و اختطوا في الجيزة خططا مثل خطط الفسطاط تماما ، كما قام العرب بإنزال قوم منهم بالإسكندرية ، وأقاموا داخل منازل الإسكندرية ، وكان منهم بعض الصحابة ، والذين اختطوا بالإسكندرية ومنهم الزبير بن العوام.

ومن أهم عوامل نزوح القبائل العربية إلى مصر هو أن كل ولي عربي على مصر كان يصحب معه أعدادا من هذه القبائل ليكونوا عونا له في مصر، بالإضافة إلى الخلفاء الذين يرسلون أعدادا كبيرة لتعزيز الجند العربي في مصر، ونجد أن عدد الجنود العرب في عهد معاوية بن أبي سفيان بلغ أربعين ألفا من العرب ، ونجد أيضا في عهد الوالي عبد العزيز بن مروان سنة 65هـ ، طلب إرسال عددا من العرب القيسية ليحدث توازن مع القبائل العربية اليمنية صاحبة الغلبة في مصر ، وفي عهد ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى (١٠٩ – ١١٧هـ) على مصر نقل أعدادا كبيرة من القبائل العربية إلى مصر وكان أغلبها من قيس، و أنزلهم الدلتا.

وفي عهد الوالي عبدالله بن الحبحاب طلب قبائل عربية من قيس منها مرت إليه مائة أهل بيت من بني نصر ومائة أهل بيت من بني عامر، ومائة أهل بيت من بنى هوازن ومائة أهل بيت من بني سليم فأنزلهم في بلبيس وأمرهم بالزراعة ؛ وأشتغلوا أيضا بنقل التجارات على ظهور الابل بين القلزم ومدن شرق

الدلتا ، وفي نهاية حكم الخليفة هشام بن عبد الملك سنة 125هـ كان في بلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس .

واختلطوا هؤلاء العرب بالأقباط وعملوا معهم في الزراعة ، وحدث تزاوج بين الفريقين وكثر الإسلام بقرى مصر ونواحيها وذلك منذ انتشار الإسلام في منطقة الحوض الشرقي بالدلتا على يد أبناء قبيلة قيس ، واستقدم الوالي الحوثرة بن سهيل الباهلى 128–131هـ) قبائل من قيس أيضا إلى مصر حتى بلغت أكثر من ثلاثة آلاف أسرة منهم في مصر ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من الحجاز كثير من بني جلدتهم ، واصبح العرب ينتقلون بين أرجاء الريف والدلتا ويختلطون بأهالي مصر في هدوء وسلام.

وكان هناك نظام الإرتباع أي تحرك العرب إلى القرى المصرية في فصل الربيع ويرعون خيولهم في حقول البرسيم حتى تسمن ، وكان العرب يختلطون بالشعب المصري لتبادل الود وتوثيق صلات التعارف بين الفريقين ؛ وكان هذا النظام يتم وفق أساس مرسوم فكان والي مصر يكتب لكل قبيلة مكان مرتعبها ؛ وكانت أماكن. الإرتباع قريبة من الفسطاط بالدلتا أو الصعيد ، وكانت فرصة للاختلاط بين العرب والقبط، وكان عمرو بن العاص يأمر جنوده أثناء الارتباع بحسن معاملة القبط وأن يكفوا أيديهم عن أموالهم وأبدانيم ، وان يعفو فروجهم عن أعراضهم ، ويغضوا أبصارهم عن نسائهم ، وأن يتجنبوا الترف في الأكل والملبس.

وأصبحت ظاهرة الارتباع عادة سنوية للقبائل العربية ، ومنها تعرفوا على البيئة المصرية ، وتعرف المصريون على العرب وبمرور الزمن حنث تبادل المؤثرات المادية والأدبية ، حتى جاء بنتيجة إيجابية من تمصير العربي وتعريب المصريين؛ حتي ظهر الإنسان المصري الجديد المسلم دينيا العربي لغة ؛ وحدث تصاهر بين العرب والمصريين وهنا ظهرت الثقافة الإسلامية واضحة بأركانها الثلاثة وهي الدين و اللغة و الدم ، كما كان هناك نظام الرباط أو الثغور في البلدان المصرية في السواحل و السجن الحدودية فكان العرب يقيمون بها للحماية الأمر الذي سهل عليهم الاختلاط بالأقباط ، و أيضا نظام الضيافة من جانب الأتباط للعرب الذين ينزلون فيها بقرى مصر و يقيمون بين الأقباط لمدة : ثلاثة أيام يتبادلون فيها الود و الهدايا و المناظرات

والواضح أن العرب منذ فتحهم لمصر و انطلقوا بين المصريين و لم يقيموا سدا أو سورا بينهم و بين أصحاب البلاد كما فصل الرومان من قبلهم إنما اختلطوا بهم من خلال ممارستهم للأعمال التجارية في بلدان مصر، وكثير من القبائل فضلت الإقامة في مناطق أخرى غير الفسطاط ؛ و امتزج العرب بالأقباط تماما حتى انهم أصبحوا في القرى يد واحدة وظهر ذلك في ثورة اسفل الأرض سنة ٢١٦هـ ضد الحكومة في الفسطاط .

كما أن هناك قرار الخليفة العباسي المعتصم في سنة ٢١٨هـ الذي أمر فيه بإسقاط من في الديوان من العرب ؛ و جردهم من أعطيا تهم كجنود، و لذلك لم يتأثر بذلك القرار لأنهم مارسوا الأعمال و الحرف مع المصريين و اصبحوا يكسبون أرزاقهم من الأعمال مثل الزراعة و التجارة و الصناعات، مثل المصريين تماما، و ذابوا في الشعب المصري تماما ، و أصبح يطلق عليهم : المصريين مع احتفاظهم بالانتساب إلى قبائلهم حوالي قرنين من الزمان ؛ ومنذ القرن الثالث الهجري أصبح العربي ينتسب إلى البلدة التي يقيم فيها بدلا من اسم قبيلته .

و صاحب انتشار الإسلام بين الأقباط في مصر انتشار اللغة العربية أيضا ، فكانت لغة الكتابة و التخاطب؛ و نلاحظ أن انتشار اللغة العربية بين الأقباط كان أسرع من انتشار الإسلام ؛ حتى انه منذ بداية القرن الثاني الهجري ؛ و أصبحت اللغة العربية هي اللغة الأولى في مصر؛ بل أصبحت مصر بلد العلم و العلماء من كل جنس ؛ حيث وفد إلى مصر الإمام الشافعي و كان يناظر بعض العلماء المصريين من أهل مصر في علوم اللغة و الدين و كان يعجب لغزارة علمهم ، كما ظهر في ميدان العلوم الإسلامية في القرن الثالث الهجري احمد بن يحيى التجيبي المصري الحافظ ، عالم النحو و الشعر و الأدب و التاريخ و علوم الدين، و هذا يدل على قوة المصريين الأدبية والدينية.

ونرى أن مصر في ظل الإسلام قد تخلت نهائيا عن ماضيها القومي و لأول مرة في التاريخ ، و تخلت عن لغتها – القديمة ، و عشقت الإسلام و حضارته الإنسانية الرائعة ، و غيرت دينها أيضا و نهلت من تعاليم الشريعة الإسلامية السمحاء ، و أنها لم تصبح دولة إسلامية فقط، بل تتزعم العالم الإسلامي قاطبة و تلك بشهادة أبن خلدون فهي أم الدنيا و إيوان الإسلام ، و ظلت كذلك منذ القرن الأول الهجري وما زالت ينبوع العلم الإسلامي و فكره المتجدد .

(٣) موقف القبائل العربية من المصريين:

احترم العرب المصريين و عاملوهم معاملة حسنة لان الإسلام دين السلام و المحبة و الاخوة ؛ و لم يأت العرب للسلب و النهب و الغزو ، إنما جاءوا لنشر الإسلام و من اجل تهذيب الأخلاق و نشر العدل و التسامح بين الناس ، لم يحتقروا أي شعب من الشعوب التي استولوا عليها ، إنما عاملوهم في تواضع شديد كما أمر الإسلام و عاملوهم بالند ، علم سادة القبط بهذه المبادئ السامية و عرفوا العرب و أهدافهم ، و لذلك سارعوا لمساعدتهم منذ اللحظة الأولى الفتح العربي لمصر ، فتجد يوحنا أحد رهبان سيناء تعاون العرب و يساعدهم في أعمال الفتح لمصر و دخل عدد كبير من الأقباط الإسلام عن إيمان و عقيدة راسخة ، و ذلك رغبة منهم في الانتماء إلى دين الطبقة الحاكمة.

كان العرب يحاربون الروم البيزنطيين فقط و ليس المصربين ؛ حتى ذكر بعض المؤرخين المصريين مثل ساويرس بن المقفع : أن انتصار العرب هو غضب من الله على الروم بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة ، و ذكر يوحنا النقيوسي أن ذلك بسبب الاضطهاد للمصريين بامر هرقل لقيرس بالقضاء على الأرثوذكس ، أضف إلى ذلك كان بالجيش البيزنطي بعض العناصر المصرية الذين تعاطفوا مع العرب و فضلوا فتحهم لمصر ، و ذلك لما سمعوه عن سماحة العرب و دينهم القيم ، الأمر الذي سهل لعمرو بن العاص الانتصار على الحاميات البيزنطية في البلدان التي فتحها.

وآثرت القبائل العربية، التي فتحت مصر ضمان ولاء الأقباط لها؛ فقد عملت منذ اللحظة الأولى باحاديث الرسول عليه السلام إذ أنه أوصى بقبط مصر خيرا في عدة أحاديث، منها قوله " .. أن الله عز و جل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبلها خيرا فان لهم منكم صهرا و ذمة" ، وقصد بذلك السيدة هاجر المصرية زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده إسماعيل ؛ كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه السلام من الشعب المصري ، وظهر ذلك أن عندما أمر عمرو بن العاص بإعادة بطريق الإسكندرية بنيامين الذي ظل مختفيا من أعين الرومان بسبب الاضطاد الديني لمدة ثلاثة عشر عاما ، و هو الذي أمر الأقباط بمساعدة العرب و الثورة ضد الروم و قبرس حاكم مصر البيزنطي.

و اعاد العرب للأقباط مذهبهم الديني الأرثوذكس بعد أن ناضروهم ضد المذهب الملكاني مذهب هرقل ؛ و أعادوا لهم كنائسهم واديرتهم ، خططوا على أصحاب المذهب الملكانى حتى يقضون عليه ، و ينفرد الأرثوذكس بمذهبهم المسيحي على سائر المذاهب المسيحية الأخرى ، و نجد أن أصحاب المذهب الملكاني بمصر لم ينالوا حريتهم إلا في فترات قليلة كما حدث في .خلافة يزيد بن معاوية إذ استطاع تادروس أحد اتباع المذهب الملكاني أن يستعيد قوة هذا المذهب في الإسكندرية و مريوط بفضل ما قدمه من أموال إلى الخليفة ، أيضا أرسل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلى عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج على مصر بأن يعطى للملكانيين كنائسهم التي كانت قد أخذت منهم ، و ذلك على اثر الاتفاق الذي ابرم بين الخليفة و الإمبراطور البيزنطي ، و بعد ذلك قام بتنصيب بطريقا للمذهب الملكاني في مصر ، بعدما ألغي هذا المنصب منذ فتح العرب لمصر سنة 21هـ/641م .

أطلق الحكام العرب الحرية الدينية للمسيحيين في مصر ، و أطلقوا معهم حرية بناء الكنائس ، و نجد البطرك اغاتون يبني كنيسة الإسكندرية (القديس مرقص) و ذلك أثناء ولاية عمرو بن العاص زمن الخليفة عثمان بن عفان ، و في ولاية مسلمة بن مخلد على مصر شيدت أول كنيسة في مصر القديمة (الفسطاط) ، و شيدت كنيسة مار جرجس و كنيسة أبي قير داخل قصر الشمع في عهد الوالي

عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، و بني أيضا البطرق إسحاق كنيسة حلوان ، و جدد كنيسة القديس مرقص زمن الوالي عبد العزيز بن مروان أيضا .

وفي زمن الوالي الوليد بن رفاعه بني الأقباط كنيسة أبي مينا داخل خطة الحمراء بمدينة الفسطاط ، وفي أثناء خلافة لهشام بن عبد الملك الأموي تم تجديد و بناء كنائس قبطية كثيرة ، و أيضا جددت كنيسة الروم بمنطقة قبة الهواء زمن خليفة العباسي المأمون (214 –218 هـ) وفي عهد الوالي موسى بن عيسي على مصر سنة (171 –172هـ) سمح بإعادة بناء الكنائس التي هدمها الولاة السابقون له ، و ذلك استنادا لفتوى الليث بن سعد و عبد الله بن لهيعة بان عامة الكنائس التي بمصر لم تشيد إلا في الإسلام و في زمن الصحابة و التابعين بوجه خاص أي أن معظم الكنائس شيدت في العصر الإسلامي بمصر.

و سمح الولاة العرب للأقباط بإقامة الإحتفالات والأعياد القبطية في حرية تامة ، على الرغم انهم لم يشاركوا الأقباط في هذه الأعياد كما شارك الولاة الإخشديون و الفاطميون خلال الفترة التى استقلوا بها بحكم مصر عن الخلافة العباسية ، و نجد أن المصريين الذين دخلوا في الإسلام و عروبة شاركوا إخواتهم الأقباط في أحياء أعيادهم القبطية أيضا ، و ذكر ابن عبد الحكم الاحتفال بوفاء النيل و ذكر أسطورة زيادة النيل في شهر بؤونة و ذلك عندما قال الأقباط لعمرو بن العام أن النيل لا يجرى أو يزيد إلا إذا أحضروا

بنتا بكرا و زينوها بأحلى المجوهرات و الملابس و القوا بها في النيل ، فلما سمع ذلك عمرو ، قال لهم : هذا لا يصير في الإسلام ؛ و كتب بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالمدينة ، الذي رد عليه بورقة مكتوب فيها " من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجري ، و أن كان الله الواحد القهار يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك ؛ ألقي عمرو بالبطاقة في النيل و لما اصبح الصباح ، رأوا النيل قد زاد إلى ستة عشر ذراعا و روى ارض مصر و كان عام رخاء علي أهل مصر.

و هناك احتفال شارك فيه المسلمون و الأقباط على السواء و هو صلاة الاستسقاء ويقام هذا الاحتفال عندما تنقص مياه النيل عن الحد المعتاد لها ؛ وقام بهذه الصلاة الوالي حفص بن الوليد ورود – زمن الخليفة هشام بن عبد الملك (105 –125 هـ) ؛ و قام بها أيضا الولاة المسلمون من بعده على مر العصور؛ كما سمح الولاة العرب بإقامة الصلوات داخل الكنائس باللغة القبطية بدلا من اللغة اليونانية ؛ بالإضافة إلى الأسماء اليونانية للبلاد ورجعت مرة أخرى إلى الأسماء القبطية مثل أسم أخميم بدلا من الاسم اليوناني بانوبوليس و الاشمونين بدلا من هرموبوليس .

و ترك العرب الوظائف الإدارية في أيدي الأقباط ، فكان في زمن الوالي عبد العزيز بن مروان سنة 70 هـ كاتبان قبطيان الإدارة شئون مصر العليا و السفلي ؛ بالإضافة إلى رؤساء المالية في مصر

طوال العصر الأموي كانوا من الأقباط؛ كما كان حاكم مدينة بورة – مدينة بالوجه البحري– قبطيا و من أهل هذه المدينة ، و سمح له العرب ببناء كثير من الكنائس بها؛ و لم يتدخل الولاة العرب في انتخاب البطاركة في تركوها حرة بين الأساقفة الأقباط يقررون يا يريدون بالانتخاب و كان الوالي يؤيد ما اجتمعوا عليه.

وننتقل إلى طائفة اليهود بمصر و كان زعيم أو رئيس هذه الطائفة يسمي باسم رئيس اليهود و كان له سلطة تشريعية كبرى الى أبناء جنسه ، و كان اليهود في مصر يخضعون لنفوذ رئيس اليهود في مدينة بغداد ، و الذي كان يلقب براس الجالوت ، و لما قامت الدولة الفاطمية في مصر، عزلت رئيس اليهود المصرى بعيدا عن رئيس اليهود في بغداد ، فأقامت لرئيس اليهود في منصبا عرف بلقب الناجد ، وكان يمتد نفوذه على اليهود في مصر وبلاد الشام في الزمن الفاطمي .

وكان رئيس اليهود الحق في الإشراف على الطوائف اليهودية الثلاث ، و أن يشرف على اتصالاتهم بالدولة ، و له الحق في اختيار رؤساء هذه الطوائف ، ويوقع العقوبات طبقا لأحكام . الديانة اليهودية ؛ و كان يشارك في العمل في خدمة مهمات الدولة الإسلامية في مصر؛ و أن تكون لحكامه أيضا لا تتعارض مع أحكام الدولة ، و أن يكون ملما بأحكام الديانة اليهودية و اللغة العبرية تماما، و من الملاحظ أن حكام مصر من العرب كانوا دائما يعترفون برأي أهل الذمة و مشاركتهم في التوقيع على معظم الآراء

و القرارات ، و عملوا على رعايتهم وفض المنازعات التي نشبت بينهم، و كانوا يخاطبون رؤساء أهل الذمة باحترام ظاهر.

تبوأ أسقف دير سانت كاترين بمكانة عظيمة لدى الولاة – العرب في مصر، فخاطبوه أحيانا بلقب البطريرك و ألقاب التعظيم النشريف و عاملوهم بكل احترام و تقدير؛ و كان الولاة في بعض الأحيان يطلبون من البطاركة في أوقات الحروب و الفتن و الأزمات الاقتصادية تدبير بعض الأموال اللازمة لعلاج هذه الأحوال؛ و أستعمل هؤلاء الولاة التسامح مع أهل الذمة ، و سمحوا لهم بردع رعاياهم إذا ما قاموا بفتن أو إخلال بالأمن.

أما من جهة القضاء فادخل العرب نظاما قضائيا يقوم على الشريعة الإسلامية بين المسلمين ؛ وسمحوا لأهل الذمة يقاضي ذمي يحكم بينهم ؛ أما إذا احتكموا إلى القاضي المسلم فكان حكم بينهم بالعدل و الشريعة الإسلامية، ففي أواخر العصر الأموي كان القاضى خير بن نعيم الحضرمى (120 128هـ) كان يجلس على باب المسجد بعد صلاة العصر و يحكم بين النصارى و اليهود و كان يقبل شهادة النصارى على النصارى و اليهود على اليهود ، و كان يحكم بينهم جميعا بالمساواة و العدل، و كان القضاة في مصر، يخصصون يوما في منازلهم للقضاء بين أهل الذمة ؛ . حتى جاء القاضي محمد بن مسروق

الكندي (177 –184هـ) و سمح لأهل الذمة بالدخول إلى المساجد لاقامة الأحكام بينهم حتى و ولو كان المتخاصمان من أجل الذمة كانا يدخلان المسجد شانهم شأن المسلمين .

الفصل الثالث

نظم الحكم و الإدارة في مصر الإسلامية

بعد أن استتب الحكم للعرب على مصر بمقتضى معاهدة صلح بابليون الأولى سنة 20هـ /641م ، و وجدوا بها نظما قامت منذ قديم الزمن ، و أبقى العرب على هذه النظم ، و اصبح العرب يشرفون على الإدارة بوجه عام ، مع مراعاة توليهم المناصب العليا.

اولا : النظام الإداري :

وكان على راس هذا النظام المالي الذي يعين من جانب الخليفة المسلم الذي كان مقره المدينة المنورة ثم دمشق ثم بغداد ؛ و كان يطلق عليه " أمير مصر ، و كان يقيم في عاصمة البلاد مثل الفسطاط و يسكن في دار الإمارة ؛ و مسكن أول عربى و هو عمرو بن العاص دار الإمارة بمدينة الفسطاط و التي تقع في الشمال الشرقي من الجامع المسمى باسمه؛ و كان الوالي له السلطة العامة في مصر و لا يسال إلا أمام الخليفة مباشرة ؛ و من أهم أعماله إمامة المسلمين في الصلاة في أيام الجمع و الأعياد و لذلك أطلق عليه أمير الصلاة ، و تذكر ولايته بأنها ولاية الصلاة .

و العمل الثاني للوالي هو قيادة الجند و رئاسة الجيش ، وكان له الحق أن ينيب عنه قائدا للجيش عند الفتح أو لأعمال الحماية و غيرها و احيانا كان الوالي يقوم بالإدارة المالية أي الخراج مما يجعل للوالي السلطة المطلقة في الولاية ؛ و كان الخليفة في بعض الأحوال يعطى الخراج إلى شخص آخر يطلق عليه عامل الخراج و بعيدا من سلطة الوالي و يكون مسئولا أمام الخليفة مباشرة ؛ و يكون منافسا للوالي ويحد

من نفوذه و خاصة في الأعمال المالية ؛ و حدث ذلك عندما طرد عمرو بن العاص الروم من الإسكندرية سنة25 هـ زمن خلافة عثمان بن عفان و آراد عثمان تولية عمرو على الصلاة ، و عبد الله بن سعد على الخراج فقال عمرو " أنا إذا كمان كماسك البقرة بقرنيها و غيري يحلبها " و ترك ولاية مصر رافضا ولاية الصلاة فقط دون الخراج.

و كان الوالي ينوب عن الخليفة في إدارة مصر فهو يشرف على شئون الجيش و أمور الدين ، و يعين صاحب الشرطة ليعاونه في حفظ النظام في الأمن، و يعين صاحب البريد ، ويعين القاضي بعد إذن الخليفة ؛ و كان يعاونه الكتاب و المشرفون على أعمال الري في البلاد ، و يعين صاحب الخراج إن كانت له السلطتين من قبل الخليفة ؛ و الوالي الاعتماد على صاحب الكورة و على ما زوت القرية أي شيخها في إدارة شئون الكورة و القرية ، كما كان يعتمد على جسطال الكورة و هو الموظف المختص على الأوضاع المالية بإقليمه، و كان الوالي يعين هيئة مركزية للإشراف على شئون الري في مصر ، و بدورها كانت تعين عمال و موظفين يعملون باستمرار على تمهيد و اصلاح الجسور و حفر الترع ، الاهتمام بمرافق الزراعة و الري و الجسور.

والى مصر حق الإشراف على شئون الشرطة ، و ينفرد بتعيين صاحبها و كان يعتبر نائب الوالي لانه ينوب عنه أثناء غيابه لمرضه أو للحج أو لأي أسباب أخرى ، و ومتولى الشرطة كان ينوب عن الوالي في إمامة الصلاة و حدث ذلك عندما. آناب عمرو بن العاص صاحب شرطته خارجة بن حذافة للصلاة مكانه و قام بقتله الخارجي عمرو بن بكر أثناء فتنة علي بن أبي طالب و معاوية ابن أبي سفيان ، و أحيانا كان الخلفاء يعينون صاحب الشرطة كما قام الخليفة العباسي المامون بتعين صاحب شرطة مصر سنة ٢١٧ هـ عندما جاء لمصر للقضاء على الثورات و القلاقل بها ، و كان وإلى مصر غالبا عندما يعين صاحب الشرطة فكان عادة يكون من أقاربه او زويه .

ومن أهم أعمال صاحب الشرطة في مصر المحافظة على الأمن الداخلي بمنع الجرائم و عقاب الجناة وتنفيذ العقوبات التي تحكم بها القضاة و بذلك تعد الشرطة من أهم الوظائف السياسية و الدينية في مصر الإسلامية ، و كان صاحب الشرطة يجمع القضاء و الشرطة معا، و كان يحافظ على الاخلاق و تشر الفضيلة و القضاء على الفساد في البلاد ، و المعاونة في إخماد الحرائق ، و تحصيل الجزية ، و ضرب النقود ، فكان صاحب الشرطة يتولى كل هذه الأعمال نتيجة لثقة الوالى في شخصه القوي.

و كان مقر صاحب الشرطة في مدينة الفسطاط مع إقامة الوالى ، وأنشئت شرطة جديدة بمدينة العسكر منذ إنشائها على يد صالح بن على سنة 131 هـ ، و أصبحت شرطتين ، شرطة عليا و شرطة

سفلي بالفسطاط و ذلك طبقا لتقسيم مدينة الفسطاط عمل فوق و عمل اسفل ؛ و صاحب شرطة الفسطاط هو متولى الشرطة وصاحبها في مصر وله اليد الطولى على الشرطة العليا في مدينة العسكر، و كان لصاحب الشرطة حق منع النساء من الخروج من بيوتهن و التوجه إلى الحمامات و المقابر ، و سجن المؤنثين و النوائح ، و بلغ من الأمن في مصر الإسلامية أن أبواب الدكاكين كانت لا تغلق ليلا ولا نهارا إنما يضع عليها شباك لمنع الكلاب من دخولها ليلا؛ و أمنت الطرق و الحمامات و أستغلت موارد البلاد اعظم استغلال.

وجاءت وظيفة صاحب البريد في مصر من أهم الوظائف العظيمة ، و لم تكن موجودة زمن الخلفاء الراشدين إنما بدأت خط العهد الأموي، و يقال أنها ظهرت في عهد معاوية بن أبي سفيان ؛ و أمر بعمارة الطرق ، ووطد العباسيون كثيرا من الطرق و جعلوها متصلة ببغداد من كافة الجهات في البلدان ؛ و كان البريد نظاما رسميا للحكومة و ليس للشعب ؛ و تطور هذا النظام و استخدمه الخلفاء العباسيون التجسس علي ولاة الأقاليم و عمالهم، و كانت هذه الوظيفة تعني الخلفاء و المهمات الرسمية بينهم وبين الولاة .

ومن أهم النظم العربية و الإسلامية التي ظهرت بمصر الإسلامية نظام القضاء الذي يقوم على أساس الشريعة الإسلامية أما النصارى و اليهود فكان لكل منهما قضاءه ؛ وكان عمر بن الخطاب أول من استناب عنه بعض الأشخاص الذين يقومون عنيه بالقضاة في الولايات الإسلامية، وهو الذي عين أول

قاضي بمصر و هو عثمان بن قيس بن ابى العاص المهمى بنة 23 هـ،وكان أحيانا يقوم الولاة في مصر بتعيين القضاة ؛ حتى أن الخلية أبي جعفر المنصور ولى قضاء مصر لعبد الله بن لهيعة سنة 155 هـ ؛ و من بعد ذلك رأينا الخلفاء هم الذين يعينون القضاة في مصر.

وفي بعض الأحيان كان القاضي يشرك الخليقة في الحكم في بعض المسائل الغامضة و من أمثلة ذلك القاضي عياض بن عبيد الله الازدى استفتى الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسألة فافتاه فيها ، والجدير بالذكر ان النظام القضائي نشا بمصر بسيطا ثم تطور مع مرور الزمن وكانت الاحكام لا تدون ، و لكن حدث مرة أن اختصم إلى القاضي سليم بن عتر في ميراث فقضى بين الورثة ، ثم أنكروا حكمه و عادوا إليه ثانية فقضي بينهم و كتب بذلك سجلا؛ فكان أول قاضي يسجل سجلا بحكمه ؛ كما اتخذ القضاة شهودا على أحكامهم فقد اتخذ القاضي المفضل بن قتادة (174 –177 هـ) عشرة شهود رجال الشهادة ؛ و كان القضاة يداومون السؤال عن هؤلاء الشهود لمعرفة مدى صدقهم ، و من ثبت عدم عدالته فكان يسقط من الشهادة.

ومن ناحية التقسيم الإداري لمصر بعد الفتح مباشرة أي منذ سنة 20 هـ /641م ، فكانت مقسمة إلى قسمين إداريين و هما مصر العليا و مصر السفلي ، و كل قسم كان مقسم إلى أقسام أو كسور ، و كان بمصر ثمانين كورة ، و كل كورة كانت به مقسمة إلى عدة قرى ؛ و كان رئيس الكورة يسمى صاحب

الكورة كما أن العرب احتفظوا بالأسماء القديمة فمثلا استعملوا كلمة بجارش (كورة) ، و بجاوكوس (صاحب الكورة) ، و جسطال الموظف المشرف على الأموال و الموازين و هي مشايخ القري.

و من ناحية أخرى فقد كان والى مصر يشرف على بلاد برقة وتوابعها من شمال إفريقية ؛ و ظهر ذلك خلال ولاية عمرو بن العاص ، و"ولاية – عبد العزيز بن مروان (65 –86 هـ)، و تذكر الدكتورة سيدة الكاشف، ان الخلفاء العباسيين اتبعوا نظام الإقطاع منذ عهد الخليفة هارون الرشيد (170 –193 هـ) و هي إنطباع بعض الأقاليم لكبار الشخصيات على أن يدفعوا مالا به الخلافة ، و اختلف هذا النظام من الإقطاع في أوروبا لأن الإقطاع الأوروبي كان يتوارثه أبناء صاحب الإقطاع أبناء صاحب الإقطاع ، أما في الشرق فكان ينتهي بموت الإقطاعي ، و اقطع الخليفة هارون بلاد المغرب لإبراهيم بن الأغلب سنة 184 هـ و في عهد الخليفة المعتمتم (218–227 هـ) قطع أحد الأتراك من قادته و هواشناس التركي ولاية مصر و ذلك سنة 219 هـ ، وكان يذكر اسم اشناس مع الخلفية في خطب الجمعة ؛ و ضربت السكة باسمه و نقش اسمه على الموازين و المكاييل ؛ و ظل اشناس صاحب إقطاع مصر و هو مقيم ببغداد وولى مصر أحد الأشخاص من قبله حتى مات سنة ٢٣٠هـ ؛ و اقطع الخليفة الواثق (227 –232 هـ) القائد التركي ايتاخ مصر اقطاعا له ، و اقطعت مصر باكباك التركي و الذي أرسل احمد بن طولون

نيابة عنه لحكم مصر سنة ٢٥4 هـ ؛ و فضل بكباك البقاء بمركز الخلافة حتى لا تحاك ضده الفتن و الدساس.

الخراج:-

و هو مقدار ما يؤخذ على الأراضي الزراعية من ضريبة و كانت تحصل عينا و نقدا ؛ و كانت تحصل ما بين دينارين و دينار واحد و ثلاثة أرادب حنطة عن الجريب (حوالي ثلث فدان) ؛ و كانت تشمل أحيانا الزيت و العسل و بعض أنواع من الأطعمة؛ و أحيانا كان الخراج يجمع نقدا ؛ وكان يراعى قوة إنتاج الأرض من ضعفه ؛ و حالة فيضان النيل لارتباطه بزراعة الأرض و كانت هذه الضريبة يتحملها الأقباط وحدهم لان العرب انصرفوا عن ملكية الأرض ؛ لأن الخليفة عمر بن الخطاب أمر العرب بالابتعاد عن الزراعة حتى يتفرغوا لعمليات الفتوحات الإسلامية.

الجيش :-

و كانت القبائل العربية التي استوطنت مصر بعد الفتح مباشرة ما هي إلا كتائب عسكرية في جيش عمرو بن العاص ، و كان أبناؤها هم جنود الجيش الإسلامي، و امتازوا بالحماسة و الشجاعة وحب الجهاد في سبيل الله ؛ و منع الخليفة عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" الجنود المسلمين و غيرها من

الولايات المفتوحة بالاشتغال و العمل في أعمال الزراعة و حرم عليهم امتلاك الأرض ، حتى لا يركنوا إلى النعيم و الترف ؛ و حتى لا تبهرهم ثروات البلاد الهائلة ؛ ولذلك كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء البلاد و الأجناد من المسلمين بأن يمنعوا الجند من الزرع و المزارعة و أن رزق عيالهم سائل و عطاءهم قائم لا ينقص منه شيئا.

و لذلك كان أمير الجيش يراقب أفراد جيشه و لا يسمح لهم بمزاولة أعمال التجارة أو الزراعة أو أعمال أخرى تشغلهم عن الجهاد و تنفيذا لأوامر الخليفة عمر بن الخطاب؛ الأمر الذي جعل الجهاد همهم الأكبر ، و بالتالي قرب إليهم قلوب الشعب المصرى لانهم لم يتدخلوا في شئونهم ؛ و لذلك نجد الوالي عمرو بن العاص ينفذ أوامر الخليفة عمر بن الخطاب بإنشاء ديوان الجند ليدون الجنود فيه أسماءهم و أسماء أولادهم و آسراتهم ، و ذلك لتقدير العطاء حسب حالة كل جندي الاجتماعية؛ ثم دون الوالي عبد العزيز بن مروان تدوينا ثانيا للجند العرب ؛ ثم الوالي قرة بن شريك صاحب التدوين الثالث ، ثم نشر بن صفوان (101 –102هـ)، صاحب تدوين الجند الرابع في مصر ؛ و بلغ عدد أهل الديوان زمن معاوية بن أبي سفيان (40 –60هـ) أربعين ألفا ،كما جعل معاوية على كل قبيلة عربية رجلان يتفقد القبيلة كل صباح و يسأل أهلها هل ولد فيكم مولود؟ أو حل عليكم ضيف ، فكان يكتب ما يذكرون له ثم يقوم بتسجيل أسماءهم بالديوان.

وهناك طائفة المطوعة التي ألحقت بالجيش العربي و هم من أهل البلاد و الذين كانوا بالجيش المصري عندما فتح العرب مصر وكانت لهم أدوار ثانوية و لا يشتركون اشتراكا فعليا في أعمال الجيش العربي ، و كان عملهم مقصورا على مصر فقط ؛ و لم يكن لهم عطاء و لم يثبتوا في الديوان ، إنما كانت تصرف أعطياتهم من الصدقات و من احباس السبيل (و هي الأوقاف التي توقف في سبيل الله) .

و أخيرا أصبحت مصر طليعة التوسع العربي في بلاد المغرب، و دعامتها العسكرية إلى أن نجح عقبة بن نافع في تأسيس القيروان سنة 50 هـ ؛ ثم بسط موسى بن نصير بسلطانه على بلاد المغرب و على الرغم من ذلك ظلت ولاية إفريقية لم تنفصل عن مصر بل كانت تتبعها من الناحية السياسية و العسكرية ، اما بلاد النوبية فنظر إليها القادة العرب على أنها منطقة هامة لتامين حدود مصر الجنوبية ، و ذلك منذ عهد عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد الذي عقد معهم معاهدة البقط، و التى حددت المعاملة بين العرب و النوبيين ثم زحفت القبائل مملكة النوبة وعربتها ، و ايضا نجد بلاد البجة التي قطنت شرق صعيد مصر و عقد معهم عبد الله بن الحبحاب صلحا نظم العلاقة بين العرب و البجاة ، و ايضا دخلت قبائل البجة الإسلام .

الأسطول:-

لم يكن العرب لهم دراية بركوب البحر لانهم عاشوا بصحراء شبه الجزيرة العربية ، و كانوا دائما يخافون من ارتياد البحر ، و خير و دليل على ذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب كان لا يسمح بالمعارك البحرية للمسلمين ، و بالتالي أمر عمرو بن العاص أن يجعل عاصمة مصر في مكان لا يحول بينه و بينهم بحرا ؛ لأنه يعلم أن أمة العرب في ذلك الوقت أمة برية و ليست بحرية ؛ و لذلك أمر المسلمين بتعليم أولادهم الرماية و السباحة و ركوب الخيل؛ نظرا لانه يعلم ما سوف يكون للعرب من حاجة إلى ركوب البحر و استخدم الأساطيل البحرية .

و عند طلب معاوية بن أبي سفيان من الخليفة عمربن الخطاب أن يسمح في غزو الروم عن طريق البحر ، رفض عمر بن الخطاب ؛ و لكن في عهد الخليفة عثمان بن عفان (23 –35هـ) جهز العرب أسطولا يحمى بلادهم الساحلية ، وساهم الأقباط في بناء هذه الأساطيل ؛ بحيث لم تأت سنة ٣٣ هـ حتى امتلك العرب أ سطولا ضخما استطاعوا أن يحطموا السيادة البيزنطية في البحر المتوسط و يستولوا على بعض جزره ؛ و في سنة ٣4هـ أراد أسطول روماني مهاجمة سواحل مصر ، فخرج أسطول من مصر تحت قيادة عبد الله بن سعد ، و ارسل معاوية بن أبي سفيان من سواحل الشام أسطولا تحت قيادة بسر بن ارطاة للتعاون مع الأسطول المصري ؛ و تقابل الأسطولان مع الأسطول البيزنطي الذي كان تحت قيادة قنسطانز الثاني في قوتكس على ساحل لكيا بالقرب من سواحل آسيا الصغرى في معركة عرفت باسم

ذات الصوارى و ذاك لكثرة.صوارى السفن، و في هذه المعركة ربط العرب المبين بعضها البعض بسفن الروم، و بذلك استطاعوا قتال الروم وجها لوجه مثل المعارك البرية ، وانتصر العرب على الروم في هذه المعركة، ووصفها المؤرخون بأنها اليرموك الثانية و يعتبر معاوية بن أبي سفيان أمير البحر الأول عند المسلمين ، أما امير البحر الثانى فهو وإلى مصر، عبد الله بن سعد ، فقد تمكن العرب من الاستيلاء على قبرص ، و تمكن معاوية أثناء ولايته على بلاد الشام أن يغزو مضيق القسطنطينية في سنة ٣٢هـ؛ و استخدم عبدالله بن سعد نور صناعة السفن المصرية ، كما أنشئت دور الصناعة السفن سنة 54 هـ بجزيرة الروضة بالقرب من الفسطاط .

الفصل الرابع

دور مصر في الحركات السياسية والدينية في

الدولة الإسلامية

ظهر دور مصر واضحا جليا في كثير من الأحداث السياسية و الدينية التي نشبت في الدولة الإسلامية سواء في عهد الخلفاء الراشدين أو الخلفاء الأمويين أو الخلفاء العباسيين ، و شاركت مصر بدور فعال إزاء هذه الحركات و اشتركت بدور إيجابي حيث أنها أصبحت احدى أركان العالم الإسلامي آنذاك تؤثر و تتأثر بما يدور في مركز الخلافة الإسلامية أو بما يحدث في أي اقليم من أقاليم العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، لأن مضمر لم تكن ولاية خاملة أو جامدة أو منعزلة بعيدا عن الخلافة و بلدانها ؛ و لكن موقعها الجغرافي العظيم في وسط بلدان الخلافة الإسلامية ، و إمكانياتها البشرية و الاقتصادية و تاريخها الطويل الحافل جعلها لي بيصوتها في كل حدث سياسي أو ديني ، و كان موقفها هاما في . في غاية التأثير مما له الأثر الهام في تبيير مجرى الأحداث و تطوراتها كما سوف نري عند العرض للحركات السياسية و الدينية التي ظهرت في مقر الخلافة الإسلامية .

أولا : دور مصر في الفتنة الكبري:-

بعدما تولى الخلافة الإسلامية الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، و أنتخب للخلافة بعد موت عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ ؛ و عرف عثمان بمنزلته الدينية العالية ؛ و ساري على سياسة سلفه في أعمال الفتوحات الإسلامية و غيرها ؛ ولم تمضي عدة سنوات على خلافة عثمان بن عفان ، حتى اتهمه بعض الناس بأمور خالفت سيرة أبي بكر و عمر و من قبلهما النبي عليه السلام و منها تفضيل

أقاربه من البيت الأموي في تولي المناصب و الولايات الإسلامية ؛ كما أتهم بأنه شيد دورا فخمة لأهله و أسرته بالمدينة ، و أنه استعمل أسلوب الترف و البذخ على العكس من أبي بكر و عمر بن الخطاب.

كما اتهم هؤلاء الخارجون على عثمان ووالية الوليد بن عقبة أنه صلى بالمسلمين صلاة الصبح أربع ركعات وهو سكران ثم قال للناس أن أردتم أن أزيدكم ركعة زدتكم ؛ فلما بلغ ذلك عثمان تغاضى عنه؛ و أننا نستبعد هذا الحدث تماما ، حيث أنه مدلس ويتنافى مع طبيعة هذه المرحلة الزمنية للمسلمين ؛ و اعتبر بعض المؤرخين أن هذه الاتهامات التي كانت مقدمات الثورة ضد عثمان ترجع إلى العصبيات القبلية و عودة إلى الجاهلية و صراع القبائل ضد قريش و زعامتها؛ و أتهموا عثمان بأنه خرج على سياسة الزهد و التقشف، و خرج أيضا على مبدأ الشورى الذي أتبعته دولة المدينة ؛ و هكذا بدا الانقسام في صفوف المسلمين و بدأت الفتنة تدب في الوحدة الإسلامية التي أرسى أركانها أبو بكر و عمر رضي الله عنهما .

و الأهم من ذلك ظهور تيار معادى للإسلام جاء من داخل الأمة الإسلامية نفسها ، من بعض الذين حقدوا على الإسلام و وحدة المسلمين ، و كان على راس هولاء شخص زعم أنه مخلصا ولكنه كان ساخطا وتظاهر بالإسلام و هو عبد الله بن سبأ و هو يهودي اصلا من اليمن ؛ و تنقل في الولايات الإسلامية و أخذ يثير الشكوك في خلافة عثمان و يتظاهر بالدعوة لعلي بن طالب في الحجاز ، و

.الكوفة و البصرة و الشام فلم ينجح ؛ على الرغم من وجود ابي ذر إلغفاري أحد الصحابة و معارضته لعثمان بن عفان و هو يريد ان يرجع عثمان إلى مسيرة السلف الصالح و ليس إرادته ضد الإسلام و المسلمين؛ فهناك فرق واضح بين الشخصين .

نزل عبد الله بن سبأ مصر فوجد انصارا و كانت نفوسهم غاضبة على عثمان بن عفان ؛ ومما زاد الأمر سوءا إن بعض الصحابة فى مصر كانوا ضد عثمان بن عفان مثل محمد بن ابى بكر ، و محمد بن أبي حذيفة ، وعمار بن ياسر؛ و بدأ عبد الله بن سبأ ينشر سموم دعوته ضد عثمان و نجح إلى حد كبير في استمالة الناس إليه، لأن عبد الله بن سعد كان مشغولا في ذلك الوقت بمعركة ذات الصواري ضد البيزنطيين سنة 34هـ؛ مما هيأ لعبد الله بن سبأ أن يصول و يجول في مصر ، و نشر تعاليمه البغيضة التي منها مذهب الرجعة فكان يعجب ممن يقول برجوع عيسى و يكذب برجوع محمد عليه السلام ، وقد قال تعالى "أن الذي فرض عليك القرآن لارادك إلى معاد " ؛ ونادي بمذهب الوصاية و أن على بن أبي طالب وصى محمد عليه السلام؛ وأن على خاتم الاوصياء و أن على أحق بالخلافة من عثمان بن عفان لأنه وصى محمد ، ولابد من الوثوب على عثمان و ارجاع حق الخلافة إلى علي بن أبي طالب.

وعندما رجع وإلى مصر عبد الله بن سعد فقد رجع إلى المدينة لأن الخليفة عثمان دعا إلى مؤتمر يحضره كل ولاة المسلمين بالمدينة ؛ و ترك عبد الله بن سعد نائبا عنه في مصر عقبة بن عامر الجهني؛

و في ظل هذه الظروف اندلعت الثورة في مصر و اغتصب حكم مصر محمد بن أبي حذيفة و إعلان الثورة و العصيان على عثمان بن عفان، و طرد عقبة بن عامر نائب الوالي في مصر و لم يستطع عبد الله بن سعد أن يدخل مصر، ودعوا إلى خلع عثمان بن عفان من الخلافة ؛ علي الرغم أنه وجد شيعة لعثمان بمصر منهم معاوية بن خديج و خازجة بن حذافة و غيرهم.

و عندما أراد معاوية بن أبي سفيان أن ينقل مقر الخلافة من المدينة إلى دمشق حتى يظل عثمان بن عفان في مأمن و بالتالي تظل في بني أمية بدمشق و لكن عثمان رفض هذه الفكرة و ردها على معاوية؛ و قيل أن عشان ارسل سعد ابن أبي وقاص لمهادنة المسلمين في مصر ، و لكن أهل مصر بقيادة محمد بن حذيفة قابلوا سعدا مقابلة سيئة و اساءوا إليه و إلى عثمان بن عفان و ارتدد راجعا ..

و هنا دعا محمد بن حذيفة الناس للخروج إلى المدينة للتعبير عن ثورتهم ضد عثمان ؛ و أرسل وفدا مكونا من ستمائة رجل ، على رأسهم عبد الرحمن بن عديس البلوى ، و بشر بن كنانة ، و محمد بن أبي بكر ، و كان ذلك في موسم الحج سنة ٣٠35هـ ، و التقى هذا الوفد بوفد الكوفة و البصرة و بعد مناوشات كثيرة ، دخل الثوار على عثمان داره و قتلوه في ذي الحجة سنة ٣٥هـ ، و يقال أن أول من وضع السيف على عثمان رئيس الوفد المصرى؛ و كان يدافع عن عثمان مائة رجل صحابي ؛ و زعم الثوار أنه بمقتل عثمان انتهت الفتنة و لم يدركوا أنها بدات .

ثانيا : دور مصر في النزاع بين علي و معاوية بن أبي سفيان :

من خلال مقتل الخليفة عثمان بن عفان و اتضح أن فمصر ولاية قوية و متميزة و تضم العديد من الأحزاب العربية و القبائل المختلفة في الأنساب و الآراء بالإضافة إلى شخصيات قوية قادرة أن تلعب دورا هاما على مسرح السياسية بالخلافة الإسلامية من خلال موقعها بمصر و نرى أن فتنة مقتل عثمان أكبر مصيبة منيت بها الأمة الإسلامية سنة 35هـ، و بويع علي بن أبي طالب بالخلافة بإجماع المسلمين ، إلا فئة قليلة كانت ترى ضرورة المطالبة بدم عثمان من الاتفاق على الخليفة؛ و ترأس هذا الفريق معاوية بن أبي سفيان وإلى الشام و ابن عم عثمان بن عفان .

قام علي بن أبي طالب بعزل ولاة عثمان من الولايات ، و إرسال ولاته إلي الأقاليم ؛ و بايعه جميع أهالي الأمصار و ولاتها ما عدا الشام و على رأسها معاوية بن أبي سفيان ؛ و بدا النزاع بين علي و معاوية، إلا أن معاوية استطاع أن يضم إلى صفه أكبر قادة العرب قوة و فكرا ومنهم عمرو بن العاص في نظير إعطائه مصر طعمة له إذا قدر له النصر على علي بن أبي طالب، وفي هذه الأثناء حدثت واقعة الجمل سنة 36هـ و هي عندما خرج طلحة والزبير و معهما السيدة عائشة زوجة النبي عليه السلام على علي بن أبي طالب ، و اشتبكوا معه في معركة أطلق عليها اسم الجمل نسبة إلى الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة و قد قتل من شدة – الرماح و النبال التي ملأت جسده فلم تظهر جثته لكثرة الأسهم

فيها " ! و كان ذلك سنة 36هـ؛ و بعد انتصار على في هذه المعركة و قتل كل من طلحة و الزبير ابن العوام اتخذ علي بن أبي طالب الكوفة مقرا لخلافته منة 36هـ .

أعلن محمد بن حذيفة ولاءه لعلي بن ابي طالب، و بدا يحارب القبائل العربية في مصر التابعة لعثمان بن عفان و كان زعيمها معاوية بن خديج و كانت هذه القبائل بصعيد مصر ، و حدثت معارك بين هذه القبائل (شيعة عثمان) و بين القبائل التي ناصرت محمد بن حذيفة (شيعة على) بالصعيد في مدن البهنسا و الإسكندرية ما بين سنتى 35 –36هـ ؛ و استطاعت شيعة عثمان أن ينتصر في اغلب المعارك التي دارت بارض مصر

و عندئذ راى معاوية أن الهجوم احسن وسيلة له ، و خاصة أن قوات على أحاطت به من كل النواحي ؛ و لذلك آثر أن يستولى على مصر لأنها قوة كبرى بجانب بلاد الشام وقاد جيشا بنفسه سنة 36هـ و دخل مصر و وصل بالقرب من الفسطاط في منطقة عين شمس فتصدى له محمد بن حذيفة ، و دارت مفاوضات بينهما على أثرها ، حصل على بعض الرهائن من محمد بن حذيفة و منهم من اشترك في قتل عثمان، و بعدما أنسحب معاوية قام بقتل هذه الرهائن انتقاما لمقتل عثمان بن عفان ؛ بينما وقع اختيار على على قيس ابن سعد ليكون واليا على مصر و ذلك بعد مقتل محمد بن أبي حذيفة؛ ولكن سرعان ما قام بعزل قيس ابن سعد عندما علم أن معاوية حاول أن يقرب هذا الوالى إليه؛ و ولى مكانه

الأشتر النخعي الذي مات مسموما حين وصوله إلى ميناء القلزم ؛ و اتهم عمرو بن العاص أنه الذي سم الأشتر في كوب من العسل ؛ و يقال أن معاوية هو الذي أوعز لحاكم القلزم بدس السم للاشتر في نظير وعودا وعده بها.

ولى علي بن أبي طالب على مصر واليا محمد بن أبي بكر سينة 37هـ ؛ و اضطهد شيعة عثمان بن عفان و ضرب ديارهم ثم سمح لهم بالنزوح من مصر و الحاق بمعاوية في بلاد الشام غير أن الأمور ببلاد الشام صارت في صالح معاوية ابن أبي سفيان حيث دارت معركة صفين سنة ٣٧هـ و انتهت بالتحكيم، و ذلك عندما رأى عمرو بن العاص أن جيش على سوف ينتصر ، فأمر الجنود برفع المصاحف على أسنة الرماح، و النداء بتحكيم القران الكريم بدلا من القتال ؛ و تلك هي الحيلة بعدما كاد على أن ينتصر على معاوية بن أبي سفيان و ينهي هذا الأمر ؛ مثل عمرو بن العاص معاوية بن أبي سفيان و مثل على أبو موسى الأشعري للتحكيم بالعدل بين الطرفين ؛ و اتفق الحكمان على خلع الاثنين ، و قام أبو موسى بخلع على أمام الناس ، ثم قام عمرو و ثبت معاوية لأنه ابن عم عثمان و أحق المسلمين بتولى الخلافة.

وهنا حدث انقسام أخر في صفوف على بن أبي طالب ، فظهرت خدعة التحكيم ، و خرج جزء من جيش علي أطلقوا عليهم الخوارج لأنهم رفضوا التحكيم من الأصل ؛ و فريق آخر من جيش على أثر

بعدم الحرب و لم يخرجوا معه للقتال ؛ و تقاتل على مع الخوارج في معركة النهروان سنة ٣٨هـ و قتل عددا منهم و لكن الخوارج اخرجوا ثلاثة رجال تقتل على و معاوية و عمرو ؛ و فشل هؤلاء إلا عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل على في رمضان سنة 40هـ .

و تبقى مصر عليها محمد بن أبي بكر كما ذكرنا سالفا ؛ و لذلك أرسل معاوية جيشا إلى مصر سنة ٣٨هـ بقيادة عمرو بن العاص، و دخل مصر و تقابل مع جيش محمد بن أبي بكر بالقرب من الفسطاط و في مكان يسمى المسناة ، و دارت المعركة و تكبد الجيشان خسائر في الأرواح كثيرة جدا ؛ و أنتصر عمرو و دخل الفسطاط و معه أهل الشام ؛ ثم قبضوا على محمد بن أبي بكر و قتله معاوية بن خديج و عندئذ انتهى حكم الراشدين من مصر سنة ٣٨هـ ، و تولاها عمرو بن العاص طعمة له بعد عطاء و نفقة الجند.

ثالثا : موقف مصر من حركة عبد الله بن الزبير :

شخصية عبد الله بن الزبير فهو صحابي ابن الزبير بن العوام الصحابي الجليل ؛ اشترك مع والده في موقعة الجمل ؛ و خدم في صفوف جيش معاوية بن أبي سفيان؛ و عندما جمع معاوية البيعة لابنه يزيد من بعده بالخلافة عارض ذلك عبد الله بن الزبير و الحسين بن علي ، و عندما مات معاوية و جلس يزيد على عرش الخلافة (60 –64هـ)؛ فانتهت معارضة الحسين بن على بمقتله في معركة كربلاء في

العاشر من محرم منة. ١١هـ؛ و لذلك دعا الزبير لتفسيه بالخلافة منذ سنة 61هـ وبايعه أهل الحجاز ؛ خاول يزيد القضاء عليه و لكنه فشل و مات دون ذلك ، و ولى الخلافة معاوية الثاني بن يزيد و لكنه اعتزل الخلافة وتركها ؛ وسرعان ما توفي معاوية الثاني ، حتي آلت إلى مروان بن عبد الحكم سنة 64هـ ؛ و كان نطاق ابن الزبير قد اتسع و بلغت دعوته الشام و مصر و رحب المصريون بدعوته؛ و لكن مروان استطاع أن يخلص الشام من براثن عبد الله بن الزبير ، و قتل مروان عامل بن الزبير الضحاك بن قيس ؛ و لكن موت مروان بن الحكم سنة 65 حالت دون القضاء عليه .

و عندما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (65–86 هـ) تغلب على العراق و على الحجاز ؛ و لكن مصر كانت تحت راية ابن الزبير و ساعده الخوارج في الاستيلاء على مصر ، و أرسل بن الزبير من قبله عبد الرحمن بن مجدم لتولى مصر ؛ و بايعه أهلها جميعا، و ذلك في شعبان سنة 64هـ ؛ و لذلك حاول مروان بن الحكم أن يقضي على حركة ابن الزبير في مصر ولكنه فشل ، و لذلك هاجم مصر بجيش كبير و حارب بن مجدم والى مصر أمام مدينة الفسطاط ، و استمرت الحروب بين الفريقين حتى تم الصلح بين ابن مجدم و مروان بن الحكم سنة 65هـ، و أمن مروان بن الحكم اهل مصر على أموالهم و أرواحهم في هذا الصلح ؛ و بذلك أصبحت مصر تابعة لمروان بن الحكم ، و ولي عليها ابنه عبد العزيز بن مروان (65– 86هـ) ؛ ثم نرى مصر تشارك في قتال عبد الله بن الزبير بالحجاز ؛ فقد أرسل

الوالى عبد العزيز بن مروان حملة بحرية بقيادة عبد الرحمن بن يخنس سنة ٧٢هـ للقضاء على ابن الزبير بالحجاز ؛ و قيل أن هذا القائد المصرى هو الذي قتل ابن الزبير في مكة.

رابعا : موقف مصر من زوال الخلافة الأموية:

في أواخر العهد الأموي ظهرت الدعوة العباسية و أعلنت على يد أبي مسلم الخراساني صاحب الفضل الأكبر في إظهار هذه الدعوة على مسرح العالم الإسلامي. آنذاك ؛ و في سنة ١٢٩هـ استولى العباسيون صلى خراسان و العراق ، و بايع ابو مسلم الخراساني أبا العباس السفاح في الكوفة سنة 132هـ ، و اجتمع له الناس جميعا و بايعوه ؛ ثم طارد الجيش العباسي الجيش الأموي الذي كان بقيادة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، و أنتصر على الأمويين عند نهر الزاب سنة ١٣٢هـ، و لذلك فر مروان بن محمد إلى مصر ليحتمي بها و يجمع بني أمية حوله.

وصل مروان بن محمد مصر ، و لكنه وجد المصريين و القبائل العربية اليمنية قد ناصبته العداء، و ذلك لانتشار الدعوة العباسية بينهم، بل طردوا الوالي حنظلة بن ضيفوان من الفسطاط و اظهروا عدم الطاعة لبني أمية ، و لذلك آثر مروان أن يدخل مصر و يخضعها بالقوة ؛ و يجعلها له مأمنا و حماية ضد العباسيين و لكنه عندما وصل مصر وجد أن الدعوة العباسية توطت أركانها و عظم أمرها ؛

حتى أن بعض أفراد البيت الأموي مثل عمرو بن سهيل يجمع قومه ويثور ضد مروان بن محمد و نجح مروان في اخضاع الإسكندرية و بعض مناطق الصعيد ، و لكن الجيوش العباسية كانت تلاحقه .

وصل صالح بن على العباسي على رأس جيش كبير إلى مصر في أعقاب مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ؛ و لذاك أمر مروان بإحراق مدينة الفسطاط و بعض المدن في شرق الدلتا ، و إحراق المراكب و السفن بعدما عبر نهر النيل إلى مدينة الجيزة بالبر الغربي من النيل ؛ و يشترك أقباط مصر مع العرب ضد مروان بين محمد لأنهم كرهوا الأمويين و لأول مرة في تاريخ مصر يساهم القبط في الثورات الخاصة بالخلافة و الحكومات العربية الإسلامية في مصر .

و تمكن العباسيون من العبور إلى الضفة الغربية للنيل بعدة طرق ؛ و طاردوا مروان بن محمد ، و اتجه مروان نحو الصعيد جتي وصل بلدة بوصير (مركز الواسطى التابعة لمحافظة بني سويف) ؛ والتقى صالح بن على و مروان بن محمد في معركة فاصلة في ذي الحجة سنة ١٣٢هـ؛ حيث أنتضر الجيش العباسي بقيادة صالح بن علي و قتل مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية ، و بذلك انتهت دولة الأمويين ، وقامت الدولة العباسية ،و أصبحت مصر ولاية عباسية ؛ و احترم العباسيون أهالي مصر من الأقباط و العرب على السواء و أعطوا لهم مكافاءات عظيمة على مساعداتهم لهم.

بناء مدينة العسكر :

ظلت مدينة القسطاط عاصمة مصر طوال عصر الولاة زمن الخلفاء الراشدين و الولاة زمن الأمويين ؛ و عندما جاء صالح بن على قائد الجيش العباسي سنة ١٣٢ هـ إلى مصر و قضي على الخلافة الأموية بمقتل مروان بن محمد في أبو صير ، فقد نزلت الجيوش العباسية شمال مدينة الفسطاط و في شرقها ، و بهذه المنطقة تعرف بالحمراء القصوي و كانت صحراء جرداء ، و كان يسكنها الروم الذين صاحبوا جيش عمرو بن العاص عند فتح مصر سنة 20هـ ؛ و لذلك أمر صالح بن على بناء مدينة لجنود في هذا المكان ، و وقع اختيار صالح بن على موقع هذه المدينة سنة 133 هـ ؛ و كان حد هذه المدينة من الجنوب عند كوم الجارح حيث تمتد الآن إلى قناطر مجرى العيون ؛ ومن الشمال إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع إمام المشهد الزينبي، و من الغرب شارعي السد و الديورة ، ومن الشرق خط يمتد من جواد خانقاه سلار و سنجر الجاولي بشارع مارسينا إلى باب السيدة نفيسة ؛ و بنيت بالعسكر دار الإمارة و سكنها الولاة العباسيون ؛ وامتدت أبنية العسكر و الفسطاط حتى أتصلتا المدينتان ببعضهما ؛ كذلك بنى بها الوالي الفضل بن صالح مسجد اجابتا سنة 169هـ .

و تعتبر مدينة المعسكر ثاني عواصم مصر الإسلامية ، و هي كانت مقر الشرطة العليا و كانت تابعة لشرطة الفسطاط ؛ و بعد فترة من بنائها أصبحت مدينة كبيرة مليئة بالأسواق و المحلات التجارية و

الدور الفخمة ؛ و ظلت مقر ولاة مصر طوال العصر العباسي حتى جاء احمد بن طولون سنة 254هـ و حول مقر الإمارة إلى مدينة القطائع و لما أحرقت القطائع سنة 292هـ ؛ رجع الولاة و أقاموا بدار الإمارة بمدينة العسكر ، حتى فتح جوهر الصقلى لمصر سنة 258هـ، و بني مدينة القاهرة الفاطمية ، و أصبحت مقر الخلافة الفاطمية في مصر ؛ ويرجع سبب بناء العسكر هو أن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين قد أحرق مدينة الفسطاط و قد يكون النيران التهمت دار الإمارة فيها ، و قد يكون صالح بن علي أبتعد عن أهالي الفسطاط لربما يكون منهم من يوالي الأمويين ، و يقال لشدة ازدحام القسطاط فضل العباسيون السكني بعيدا عنها ؛ ثم شيد بالعسكر دار الإمارة بها ؛ ثم بني المسجد الجامع بالعسكر سنة 169هـ ؛ في أثناء ولاية الفضل بن صالح بن على ؛ لأن من ظواهر اكتمال المدن الإسلامية المسجد الجامع .

واعتبر هذا الجامع ثاني مسجد جامع أقيم في مصر الإسلامية ، بعد جامع القسطاط او جامع عمرو بن العاص ؛ وقد بقي علي حاله حتى ولى مصر عبد الله بن طاهر سلة 212هـ ؛ فقام بتجديده و زاد فيه وصار الناس يصلون فيه أيام الجمع حتى جاء احمد بن طولون و بني جامع القطائع ، فتركه الناس و صلوا بجامع أحمد بن طولون ؛ و ظل هذا المسجد موجودا إلى العصر الفاطمي.

خامسا : موقف العلويين و الأمويين في مصر من الخلافة العباسية:

عندما أعلنت الخلافة العباسية على مسرح الحياة السياسية شعر العلويون (و هم شيعة علي بن أبي طالب) و نظر العلويون للعباسيين بأنهم اغتصبوا الخلافة منهم ؛ و أعلنوا العصيان للخلفاء العباسيين ، ولم يهدءوا طوال العصر العباسي في كافة الولايات الإسلامية ، و ظهرت حركاتهم في مصر واضحة جلية ؛ وفي عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (136- 158هـ) ؛ جاء إلى مصر أحد العلويين و هو على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب و هو يدعوا لأبيه المعروف بالنفس الذكية، و الذي أقام دعوته بخراسان ثم بمكة و المدينة ، و لكن العباسيين تمكنوا من قتل النفس الذكية ثم قتلوا أخاه إبراهيم أيضا على يد بن عيسى بن موسى في منطقة باخمري و عرف بشهيد باخمري سنة 145هـ؛ و لكن على بن محمد ، اختفى و مات بالعراق بعد أن أثارت دعوته أهالي مصر.

وقدم بعض العلويين إلى مصر فارين من أضطهاد العباسيين فمنهم السيدة نفيسة رضي الله عنها بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب ، و جاءت إلى مصر مع زوجها من المدينة المنورة إلى مصر هاربين من اضطهاد العباسيين لهم ، و كان زوجها إسحاق بن جعفر الصادق ؛ و توفيت في رمضان سنة ٢٠٨ هـ؛ و قبرها لا يزال من أهم مقابر آل البيت المشهورة بالقاهرة .

وفي الخلافة المتوكل على الله العباسى (232– 247هـ) كان يكره العلويين فأرسل إلى وإلى مصر إسحاق بن يحيى (235 –236هـ) و أمره فيه بإخراج شيعة علي بن أبي طالب من مصر، و تم إخراجهم من الفسطاط سنة ٢٣6هـ ؛ و رحلوا إلى العراق ثم حولوا بعد ذلك إلى المدينة المنورة و من بقي من العلويين في مصر اختفى في بلاد الصعيد ؛ و تابع هذه السياسة الوالي يزيد بن عبد الله فاخرج كل من عثر عليه من العلويين و عامله بالشدة و العنف إلى العراق ،ولما تولى الخلافة المنتصر بن المتوكل سنة 247هـ أرسل إلى وإلى مصر يزيد بن عبد الله بالا يقبل علوي صنعته و لا يركب فرس ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها ، و ان يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ؛ و أن كانت بينه و بين أحد من الطالبين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه و لم يطالب ببينة .

و في خلافة المستعين بالله العباس سنة ٢48هـ ، الخرج الوالي على مصر يزيد بن عبد الله بعض العلوين و طردهم إلى العراق ؛ و عندما تولى الخلافة العباسية المعتر (252 – 255هـ) ثار في مدينة الإسكندرية جابر بن الوليد المدلجي سنة 252هـ، و أنفصل بالوجه البحرى و جبي من بلاده الخراج و عجز الولى يزيد بن عبد الله عن قمع هذه الحركة ، حتى أرسل الخليفة جيشا بقيادة مزاحم بن خاقان الذي أنتصر على جيش جابر بن الوليد و قضى على هذه الحركة ، وتولى مصر مزاحم بن خاقان سنة 253هـ ، بعدما نجح في القضاء على جابر بن الوليد ، و من معه من العلويين .

قامت حركات علوية بصعيد مصر منها حركة بغا الأكبر وهو احمد بن إبراهيم بن عبد الله بن طباطبا سنة 254هـ ولكن حركته انتهت بالفشل ؛ ثم ظهر بغا الأصغر العلوي و اسمه احمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا ما بين الإسكندرية و برقة سنة 255هـ ، ثم زحف نحو الصعيد ، و تفاقمت حركته و لكن احمد بن طولون هزمه و قضي عليه ؛ و أيضا ظهر بصعيد مصر اين الصوفي العلوي سنة ٢53هـ، ودخل مدينة إسنا سنة 255هـ و عاث فيها الخراب والفساد ؛ و لما جات إليه جيوش ابن طولون ، هاجر إلى المدينة المنورة حيث انتهت حياته فيها.

أما عن الأمويين فظهروا كارهين للخلافة العباسية التي قامت على أنقاض دولتهم ، ففي عهد الخليفة المهدى (158 –169 هـ) وفي ولاية ابراهيم بن صالح (165 –167هـ) خرج دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان بصعيد مصر و جمع حوله القبائل الأموية ، و انضمت إليه معظم قبائل الصعيد،وكاد ينفصل بالصعيد ، ولذلك لم علم الخليفة المهدى بذلك عزل و والى مصر ابراهيم بن صالح ؛ و ولي مكانه موسى بن مصعب (167 –168هـ) ؛ والذي لم يتمكن من عمل شي ضد دحية لأنه قتل في الحوف على اثر ثورة ضده ؛ وتولي عدة ولاة حتى ولي مصر الفضل بن صالح بن على سنه 169هـ ، ، و هزم دحية جيشا ارسله له الفضل بن صالح بالواحات ؛ ثم ارسل الوالي اليه جيشا تمكن من هزيته وقتله سنة 169هـ بعد ان قطعت راسه وارسلن الى الخليفة الهادي .

سادسا : دور مصر في النزاع بين الأمين و المأمون :

قام الخليفة هارون الرشيد في سبنة175 هـ بتولية العهد بالخلافة لابنه الأمين من بعده ، و ذلك بتأثير زوجته زبيدة لأنها من اصل عربى و جدها أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني (136 – 158 هـ) ؛ و كان الأمين يمثل العنصر العربي في الخلافة آنذاك ؛ ثم عهد هارون الرشيد بالخلافة لابنه المأمون بعد الأمين ؛ و كان المأمون يمثل الحزب الفارسي للخلافة لأن أمه كانت فارسية ؛ و افرد هارون لابنه عبد الله المأمون حكم بلاد المشرق الإسلامي أي ما يلي بغداد من ناحية الشرق؛ . فبما في ذلك خراسان ؛ و جعل ولاية الغرب لابنه الأمين أي بلاد العراق و الشام و مصر و بلاد المغرب الإسلامي.

و لكن الأمين اظهر منذ توليه للخاطفة عدم رغبته في تنفيذ عهد أبيه هارون الرشيد في تولية المأمون بعده ؛ فخلع المأمون من ولاية العهد و بايع لابنه موسى ، و من هنا بدأت مشكلة النزاع بين الأخوين ؛ و بدأت رحي الحرب بينهما منذ سنينة 195هـ ؛ ومثلت فترة خلافة الأمين .(١٩٣ – 198هـ) عهد فوضى و اضطرابات، في كافة أرجاء الدولة الإسلامية ، و استغلت الأحزاب المعارضة الخلافة العباسية بصفة عامة فرصة هذا النزاع بين الأخوين فقامت ثورات من جانب العربين واخري من جانب الامويين ،وظهرت هذه الثورات بمصر فتحزب فريق من القبائل العربية للامين ، و فريق آخر للمامون ،

حتى استطاعت بعض الشخصيات الانفصال بمصر مؤقتا ؛ و استطاع بعض الأندلسيين أن يؤسسوا شبه إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية في الإسكندرية ؛ و انعزلت مصر عن الخلافة خلال هذه الفترة.

ودليل القلق و الاضطرابات عندما مر الرسل و معهم خراج مصر خلال عهد الخليفة الأمين ، وعند مدينة الرملة وثب أهلها عليهم و اخذوها بالقوة كما ثارت القبائل العربية بمنطقة " الحوف.سنة 194 هـ ، و امتنعوا عن دفع الخراج لوإلى مصر حاتم بن هرثمة و لكنه أرسل إليهم جيشا تمكن من هزيمتهم ؛ و عندما علم أهل مصر بنبأ خلع الأمين للمأمون من الخلافة ؛ تزعم حركة المعارضة رجل من العرب يسمى السري بن الحكم في مصر و اخذ يدعو أهل مصر بضرورة خلع الأمين ؛ و أعلن خلع الأمين في مصر سنة 196هـ و ثاز جند مصر على الوالى جابر بن الأشعث و أخرجوه من مصر ثم اقروا واليا جديدا من قبل المأمون و هو عباد بن مجد

و ثار أهل الحوف بقيادة ربيعة بن قيس محتجين على خلع الأمين و كانت قبائل قيس كلها ؛ و اروا إلى الفسطاط لخلع الوالي عباد بن محمد ، و حدث قتال حول الفسطاط سنة ١97هـ ؛ و لكنها قفلوا راجعين إلى الحوف دون أن ينفذوا غرضهم ؛ ولكن الوالي عباد بن محمد أرسل لهم عبد العزيز الجردي في منطقة الحوف و حاربهم و لكنه أنهزم ورجع مرة أخرى .

ولكن عبد العزيز الجردى نراه يعلن نفسه، واليا على مصر السفلى ؛ و يتبع غرضه الشخصي و يتنكر لوالى مصر عباد بن محمد بل بعث عماله لجباية الخراج مصر السفلي و لذلك، ترى عباد ينتدب السرى بن الحكم لمحاربة أهل الحوف سنة 198هـ الذين هاجموا الفسطاط يريدون الاستيلاء عليها و حدث قتال بين الفريقين حول الفسطاط ، و لكن الأخبار قدمت إلى مصر بخبر بمقتل الأمين سنة 198هـ فتفرق الناس و رجع كل إلى مكانه ؛ وعزل الخليفة المأمون عباد و عين على مصر الوالي المطلب بن عبد الله الخزاعي في صفر سنة 198هـ .

وفي تلك الأثناء ينفرد عبد العزيز الجردى بالحوف ؛ و أيضا يعلن السرى بن الحكم أنه واليا على مصر بانتخاب سائر الجند له سنة ٢٠٠هـ ، بل اخرج الوالي المطلب بن عبد الله الخزاعي من مصر وطرده ؛ و استولى الجردي على شرق الدلتا ؛ و استولى السري بن الحكم على الصعيد، بجانب الفسطاط ؛ ونجد قبيلتا لخم و خدام تنفرد بحكم غرب الدلتا؛ و أيضا خلال هذه الأحداث وصل أهل الربط المطرودين من الأندلس على يد حاكمها الحكم بن هشام سنة 198هـ ، فجاءوا برجالهم ونساءهم و أطفالهم وهم حوالي خمسة عشر ألف شخص ، و احتلوا الإسكندرية و حكموها من أنفسهم سنة 200هـ ،و ولوا مكانه رجل يعرف بالكناني و ظلت الإسكندرية تحت نفوذ الأندلسيين .

و إزاء هذه الفوضى في مصر، خضع الخليفة المأمون للأمر الواقع ؛ و ولي السرى بن الحكم على مصر سنة 201هـ ؛ و أرسل أيضا إلى السري يأمره بأخذ البيعة بالخلافة من بعده لأحد العلويين و هو على الرضا ؛ و حيث الانقسام بين العرب في مصر فمنهم وافق على البيعة لعلى الرضا ، ومنهم من اعترض و عارض ذلك و على راس المعارضين عبد العزيز الجردي سنة ٢٠٢هـ ؛ و لكن انتهت هذه الفتة بموت على الرضا سنة ٢٠٣ هـ ؛ و قتل عبد العزيز الجردي و هو يحاصر الأندلسيين بالإسكندرية سنة205هـ ثم مات السرى بن الحكم بعده بثلاث شهور و نجد النزاع ينتقل من الآباء إلى الأبناء ؛ فترى نصر بن السري بن الحكم يحكم الفسطاط و الصعيد و غربي الدلتا ؛ و كان بيد علي بن عبد العزيز الجردي" شرق الدلتا ؛ وفي سنة ٢٠6هـ مات نصر بن السري ، و تولى مكانه أخوه عبيد الله بن السري و بائعة الجند بولاية مصر سنة ٢٠6هـ ؛ و حيث صلح بينه و بين على بن الجردي ولم يتعرض كل منهما للآخر .

وحاول الخليفة المأمون القضاء على الفوضى في مصر فارسل واليا من قبله لتولى مصر و لكن عبيد الله بن السري طرده و أخرجه من مصر نظرا لقوته ؛ و لذلك آثر المأمون السلامة و اقر عبيد الله بن السري على مصر ، و الجردي على شرق الدلتا ، و ذلك حتى يتفرغ لهما ؛ و لكن في سنة 209هـ ، اندلع النزاع المرتقب بين ابن السري و ابن الجردى و وقعت حروب كثيرة بينهما ؛ و تمكن ابن السري من

الاستيلاء على تنيس مقر ولاية الجردى و هرب لبن الجردي إلى العريش في ربيع الأول سنة ٢٠٩ هـ؛ و رجع إبن الجردي يريد قتال ابن السرى و دارت عدة معارك ؛ و بينما هم كذلك، حتى جاء الجيش العباسي بقيادة القائد عبد الله طاهر بن الحسين ؛ و هنا أنضم له الجردى ، ثم حاصر الفسطاط و بها ابن السرى و حدث قتال شديد و قتل عدد كبير من رجال مصر؛ و لكن حدث صلح و خضع ابن السري لعبد الله بن طاهر والى المأمون سنة ٢١١هـ ؛ ثم أرسله إلى المأمون في بغداد .

و تفرغ عبد الله بن طاهر بن الحسين لقتال الأندلسيين بعدما قضى على ابن السري و ابن الجردى ؛ فسار بجيشه نحو الإسكندرية في سنة ٢١٢هـ ، و حاصر أهلها الذين طلبوا منه الأمان؛ و صالحهم و أمنهم، على أن يتركوا الإسكندرية ؛ فخرجوا منها ، و احتلوا جزيرة كريت تحت زعامة رجل منهم يسمي أبو حفص عمر بن عيسى ، و وظل بها ردحا من الزمن بلغ حوالي قرنا و نصف، حتى استعادها البيزنطيون من هولاء المسلمين.

سابعا : دور مصر في المحنة بالقول بخلق القرآن :

و ظهرت مسالة خلق القرآن على أيدي المعتزلة الذين ظهروا بتعاليمهم بالعراق ؛ و هي مبنية على أكبر أصل من أصول المعتزلة و هي عقيدة التوحيد و عدم تعدد صفات المولى عز و جل ؛ فقد ذهب المعتزلة بأن القرآن الكريم حادث مخلوق تزل في ظروف معينة و ليس أزليا ؛ و اظهر المعتزلة القول

بخلق القرآن الكريم لأن صفة الكلام في نظرهم منفية عن الله عز و جل ، ولا يمكن اعتبار القرآن كلام الله إلا على التأويل ، هذا هو رأي المعتزلة في القول بأن بالقرآن مخلوق و ليس أزليا .

وظلت الفترة ما بين (218 –234 هـ) هي فترة المسألة القرآنية التي ركز فيها المعتزلة فكرهم وآراؤهم في هذه الناحية؛ ووافق الخليفة المأمون على القول بخلق القرآن الكريم، و حمل الناس عليه في سنة ٢١٨ هـ ، و طلب من واليه إسحاق بن. إبراهيم (والى بغداد) أن يمتحن الناس بالعراق و أن يعاقب من لا يقر بخلق " القرآن " ؛ و مات المأمون و واصل هذه المسيرة الخليفة المعتصم (٢٢٧–٢١٨ هـ) ، ثم الخليفة الواثق (227 – 232هـ) ؛ و عنب هؤلاء الخلفاء الثلاثة من لا يعترف بخلق القرآن حتى نال العقاب الإمام أحمد بن حنبل ، و قتل كثير من الناس ؛ و عارض كثير من المسلمين و العلماء مسالة أن القرآن مخلوق و عارضوا هؤلاء الخلفاء ؛ و امتدت المحنة إلى معظم الولايات الإسلامية ، و كان . يعاقب كل من لا يقر بخلق القرآن.

أما عن مصر و موقفها في هذه المحنة الأليمة ، فظهرت أثناء ولاية كيدر بن نصر على مصر (٢١٧–٢١٩هـ) ، و طلب منه المعتصم أن يمتحن الناس أجمعين و خاصة الفقهاء و العلماء و رجال الدين و القضاة و غيرهم ، و من لا يعترف يخلق القرآن يعزل من وظيفته ؛ فوافق كثير من العلماء والفقهاء و القضاة في مصر على مسألة خلق القرآن، و لم يوافق إلا القليل من المصريين، و لكن في عهد الواثق

(227 –232هـ) ورد منه كتاب إلى قاضى مصر محمد بن أبي الليث الخوارزمي بامتحان كل المصريين المسلمين في هذه المسالة ؛ و هنا. عارض المصريون مسالة خلق القرآن ، و اقروا أنه أزلي و ليس مخلوق ؛ فقبضوا على معظم الناس و ملأوا السجون في مصر.

و كتب قاض مصر محمد بن ابي الليث على أبواب المساجد في مصر " لا اله إلا الله رب القران المخلوق " و جرب كثير من أهل مصر إزاء هذه الفتنة ، و قد مرتب ذو النون الأخميمي من مصر و لكنه وقع في قبضة القاضي المصري ، و على اثر التعذيب اقر بخلق القرآن ؛ و قد امتنع عن القول بخلق القرآن أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى صاجب الإمام الشافعي ، و حمل إلى بغداد و مصمم على كلامه و مات و هو في السجن بالعراق منة 231 هـ ؛ و استعمل الولاة و القضاة التعذيب في السجن في مصر إزاء هذه المحنة.

و في سنة ٢٣٤هـ و كان على الخلافة المتوكل على الله ،و لما وجد هذه المحنة قد طال أمدها أرسل كتابا إلى والي مصر يأمره فيه بترك الجدل في القرآن الكريم و إبطال هذه المحنة ؛ وعم هذا القرار جميع العالم الإسلامي؛ وعم الفرح كافة بلدان الإسلام و عظم المسلمون شان الخليفة المتوكل و اعتبروه من اعظم خلفاء المسلمين ، لأنه حقن الدماء و أنقذ المسلمين من الاضطهاد و التعذيب و أعاد الأمن و الطمأنينة إلى قلوب الناس.

الفضل الخامس

حضارة مصر في عصر الولاة

فتح العرب مصر لنشر الديانة الإسلامية الغراء ، و كانوا على يقين أنهم أمام شعوب عرف الحضارة و الاستقرار و الرقي ملى نسبت آلاف السنين ؛ فوجدوا أنفسهم في مصر أمام شعب عريق فشقشم فتبادلوا معه الصالات في احترام تام ، و لم يتعرضوا ديانته و تقاليده ، و استوعبوا حضارته و استفادوا منها في تأسيس حضارة جديدة ، عرفت باسم الحضارة الإسلامية و هي أعظم ما عرفته البشرية خلال العصور الوسطى؛ ومنذ الفتح تقدمت الحضارة الاسلامية في مصر وعم الأمن و التقدم وازدهار شعبها ، و اعتبرت مصر أن المسلمين منقذين من جور و تعسف البيزنطيين، و بذل ولاة مصر قصارى جهدهم في إصلاحات مرافق الزراعة و الجسور و الطرق و التي عادت على أهلها بالخير و اليمن ، و لكثرة خيرات مصر قال عنها عمرو بن العاص "ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة "؛ وقد وصفها عمرو بن العاصن لعمر بن الخطاب وصفا رائعا و ذكر له نيلها وخيرها و ثمارها ورجالها.

(1) الزراعة:-

ساهم قرار الخليفة المعتصم سنة ٢١٨هـ و الخاص بإسقاط العرب من الديوان و حرمانهم من العطاء في تحول الحياة الاقتصادية و ذلك بمشاركة العرب المصريين في أعمال الزراعة و كافة الحرف الأخرى ، بالإضافة إلى الاندماج بين المصريين و العرب ؛ كما نجد بعض الولاة و الخلفاء يشجعون العرب بالاشتغال في مهنة الزراعة ، فمنهم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك يأمر قبائل قيس بالاشتغال بالزراعة

في مصر ، ولذلك قد أشارت أوراق البردي العربية إلى امتلاك العرب بالصعيد الأراضي و الاشتغال بالزراعة ..

و اشتغل بعض العرب من قبائل قريش بصعيد مصر و الذين قطنوا منطقة الأشمونين بالزراعة و زرعوا الحبوب في منطقة منفلوط و التي اشتهرت بأطيب أنواع القمح، و نجد في خلال العصر الأموي ، استأجر العرب الضياع و الأراضي الزراعية بجنوب مصر حتى في بلاد النوبة و قاموا بزراعتها ،وكانوا يؤدون خراجها إلى ملك النوبة؛ و في عهد الخليفة المأمون العباسي (196- 218هـ) اشترى العرب الأراضي و الضياع من أهالي النوبة و قاموا بزراعتها ، حتى أن ملك النوبة احتج على ذلك و قدم شكوى إلى الخليفة المأمون الذي حقق في هذا الأمر ، و لما اقر أهالي النوبة أنهم أحرار مثل العرب تماما ، فقد حكم الخليفة المأمون بصحة عقود البيع بين النوبة والعرب.

وزرع المصريون و العرب معا النطرون بالبهنسا و بلدان الوجه القبلى و قد حقق العرب ثروة عظيمة من جراء اشتغالهم بالزراعة و ترك العرب الفتن و القلاقل و أمور السلطان، و قام العرب بامتلاب الضياع و زراعتها بمنطقة الآشمونين و البهنسا بالصعيد ، وكان يقوم أحد الأقباط بالإشراف عليه؛ و ممن امتلكوا الضياع من العرب محمد بن هارون و جعفر بن أحمد بن سلامة ؛ و احمد بن جعفر ؛ و زرع

العرب أيضا القطن التي قامت عليه صناعة المنسوجات القطنية ، و الفواكه و الكروم و الزيتون، و النخيل و غابات الأشجار الاستفادة بخشبها ؛ لبناء السفن و المنازل و البيوت .

كما راجت زراعة القمح و الكتان في العصر الإسلامي بمدن الآشمونين و زراعة الشعير و البصل و العدس و البرسيم و الفول والجلبان ، وكثيرا ما استخدم المزارعون من العرب الأقباط الري الصناعي في الزراعة مثل السواقي و الآبار و العيون وذلك خلال فصل الشتاء؛ و شاعت زراعة القمح و الكيزان بمدينة طما بمحافظة سوهاج الآن خلال عصر الولاة و الكتان بالفيوم ، واسوان التي اشتهرت بقصب السكر كما زرع محصول النيلة التي تستخدم في الأصباغ .

و من أهم مزايا الزراعة في مصر أنها كانت تحقق الاكتفاء الساتي للسكان ، بل كانت تمد الحرمين الشريفين بالغلال و الحبوب و توسع عني سكان الحجاز؛ و من كان فضل مصر في الزراعة، أن الإمام الشافعي كان يفضل محصول قصب السكر و قال : لولا قصب السكر ما عشت بمصر " و ظلت طرق الزراعة في مصر موروثة عن الفراعنة و ان كانت تقدمت في عصر الرومان الا انها كما حتى العصر الحديث و اهتم العرب بزراعة القلقانس و السمسم و البطيخ و اللوبيا والكروم والتين والتفاح و التوت والخوخ و القطن و القصب خلال فترة الصيف .

واهتم العرب في مصر بتحسين الجسور و الطرق و مشروعات الري ، و ذلك لتحسين الزراعة و ظهر ذلك منذ عصر عمرو بن العاص الذي بني مقياس للنيل عند مشينة آسون و دندرة من بلدان صعيد مصر، كما رويت معظم أراضى مصر و الصعيد بالري الي يسمى ري الحياض و بنى معاوية بن أبي سفيان مقياس لنيل عند مدينة انصنا بالصعيد : و ظل هذا المقياس في مصر إلى عهد المماليك ، و كان وقت الفيضان يطغى النيل على الأراضي الزراعية لدرجة أن السكان في أسوان اضطروا لبناء مساكنهم على التلال العالية؛ و كانوا يتنقلون بين القري و البلدان بواسطة المراكب، و أهتم العرب بالصعيد أيضا باستصلاح الأراضي الصحراوية و البور و توسيع رقعة الزراعة .

و اهتم انعرب في مصر بتربية المواشي و خاصة الخيول التي هي عدة المسلمين حيث قال الله تعالى " و اعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم " و كان العرب موسم في مصر يرعون فيه الخيول و يعملون على تربيتها و كانوا يرعون في أماكن حول الفسطاط بالدلتا و الصعيد ؛ كا دربوا خيولهم في ضياع واسعة خصصت لها و كانت مدينة الاشمونين نزهة الخيل و الدواب والبغال ، و ربى العرب أيضا الجمال التي استغلوها في نقل التجارة و الحجاج إلى منطقة عيذاب على البحر الأحمر ؛ كما ستختموا الجمال لنقل المؤن بين الفيوم و الواحات .

وقام أهالي الصعيد بتربية المواشي و أشارت أوراق البردي العربية إلى أنها كانت تجبي الضرائب على المواشي في الأسواق و على المراعي في بلاد الاشمونين و كان ذلك خلال القرن الثالث الهجري ؛ و أيضا أعتنى العرب بتربية الأغنام في بلاد البهنسا والاشمونين ، و أستخدموا الأصواف في صناعة الملايات و الشيلان و الطواقي و كانوا يبيعونها في الفسطاط؛ كما أن الولاة العرب اهتموا بطرق الزراعة و الري و اهتموا بالجسور و حفر الترع وبناء القناطر وكان يقوم بتلك العمل صيفا وشتاء حوالى 120 الف عامل مصر من قبل الولاة .

2- الصناعات

مثلت الصناعى في مصر في عهد الولاة دعامة من أهم الدعامات الاقتصادية للبلاد ، و كانت معظم هذا الصناعات يقوم بها مصر من الاقباط و العرب على السواء خلال القرن الثالث الهجرى ؛و قبل هذا التاريخ كان يقوم بها الأقباط ، ولكن بعد اندماج العرب معهم شاركوا الأقباط في العمل بهذه الصناعات؛ و مما زاد من تقدم الصناعات في مصر هو اهتمام الدولة العباسية بالصناعة و أوامرهم إلى الولاة في الأقاليم بالعمل على الاهتمام بالرقي بهذه الصناعات ، وبرع المصريون في كافة صنوف الصناعات خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين وانتشرت صناعتهم معظم البلدان الداخلية والخارجية .

فتقدمت صناعة النسيج وخاصة في صعيد مصر والتى شاركت فيه القبائل العربية ،وكانت المصانع الاهلية منتشرة في كافة مدن الصعيد ، بالاضافة الى دور الصناعات التى انشاتها الحكومات المتعاقبة ، وبدأت كل مدينة تتميز بصناعاتها المختلفة عن المدن الاخرى في مصر ، فاشتهرت مدينة الاشمونين بانتاج المنسوجات وعمل الثياب التى كانت تصدرها الى مدينة الفسطاط وتباع باسواقها .

واشتهرت مدينة الفيوم بصناعات من أنسجة الصوف و التي كانت عليها كتابات و رسوم هندسية في زخارف و كتب عليها إسم الخليفة و اسم الوزير، و اشتهرت مشينة أسيوط بإنتاج المنسوجات الكتابية والصوفية و أنتجت أسيوط النسيج الدبيقة الذي كان يصنع بقرية ديبق (تابعة لدمياط) ؛ كما عملت الثياب الخفيفة ، الثقيلة و الدقيقة واستعملت الكتابات على الفرش و الستور و كانت تزخرف أيضا بصور الحيوانات و كانت تصدر من أسيوط إلى خارج مصر ، و أنتجت نرع من الفرش القرمزية التي تشبه الفرش الأرمينية من حيث الجودة و دقة الصناعة.

و من أهم مراكز النسيج في معمل مدينة أخميم و التي اشتهرت بصناعة المنسوجات في العصر الفرعوني ، حتى احتلت مركز الصدارة في هذه الصناعية خلال العصور الوسطى ، حيث تنها كانت تصنع كسوة الكعبة الشريفة ، و صنع بأخميم المصنوعات الكتانية انت الى المشجرة ، و التي تجمع بين الألوان السوداء والبيضاء ، و بلغ ثمن الثوب من صناعة أخميم حوالي عشرين دينار؛ و صنع في اخميم

المنسوجات الكتانية والصوفية و صنعت بها بملابس الرجال و النساء و الطواقي و الملاءات و الفوط، كما صنعت الأقمشة الحريرية التي اشتهرت بها منذ عهد البطالمة حتى يومنا هذا .

ومدينة قوص (تابعة لمحافظة قنا الآن) اشتهرت بصناعة المنسوجات الكتانية و القطنية و الحريرية وكانت تباع في حوانيت المدينة ؛ كما كانت هذه الحوانيت متراصة بجانب بعضها البعض و بجانب حوانيت الصباغين ؛ و مدينة أسوان راجت بها صناعة الجباب من الصوف و القطن و صنعت بها الفوط و الملاءات ،وجاءت صناعة النسيج المتنوعة في مدينتي البهنسا و يوسن التابعتين لمحافظة بنى سويف الآن و اشتهرت يوسن بصناعة أنواع راقية من المناديل و صنعت الأكسية الصوفية بمدينة القيس ، و صنعت ثياب الخليفة معاوية بن أبي سفيان بمدينة القيس لأنها اشتهرت بالجودة و الرقة، و صنعت بالمدينة أيضا الستور و المضارب و كان دخلها سنة ٢٢٦هـ حوالي عشرة آلاف دينار و كانت ترسل للوالي.

وراجت صناعة النسيج بمدينة طما (تابعة لمحافظة سوهاج) فاشتهرت بالصناعات الصوفية الرقيقة و أيضا: بلدة درنكة تابعة لمحافظة أسيوط كانت بها الصناعات الصوفية ، و صنعت العمائم من الكتان في بلدة سمسطا (بني سويف) ؛ و كانت هذه الصناعات بمختلف أشكانها تطرح بأسواق أخميم و الجيزة ؛ و اشتهرت بصناعة النسيج بلدة بو صير (بني سويف) و اهناسيا و أنتجت المنسوجات الصوفية ؛ كما

عثر بمدينة أخميم على ثوب من الحرير مكتوب عليه اسم الخليفة مروان بن محمد ، و راجت صناعة الخيش بالفيوم ،و ذلك لتوفر محصول الكتان بها .

و كان العرب يطلقون على المنسوجات المصرية التي تصلهم من مصر اسم " قباطي" لأن معظم النساجين كانوا من أقباط مصر ، ووضعوا رسوما و أشكالا هندسية على المنسوجات بدلا من الصور الأدمية التي كرها العرب المسلمون و حرمها الإسلام و انفردت مصر خلال عصر الولاة بأجود أنواع الصوف و الكتان التي لا يجيدها بلد في الدنيا إلا مصر ، واشتهرت مدينة الإسكندرية بصباغة الثياب التي تحمل إلى كافة اقطار الأرض ؛ و كانت تصنع ثياب اطلق عليها "الشرب كل زنة درهم منها بدرهم فضة ؛ كما اشتهرت مدينة تيس بالثياب الفاخرة .

وكانت تنيس طوال عهد الولاة في مصر تصدر كل منتجاتها للخارج ، و صنع بها أيضا ثياب صيفية نطذف عنيها أسم المنخل و في المسماة بالقصب و كان الملون منها يصنع في تنيس ، اما الأبيض فكان يصنع بمدينة دمياط ؛ واشتهرت من مدن الدلتا بصناعة النسيج بين شطا ودميرة وتوفة (بالقرب من دمياط) ؛ و كانت مصانع النسيج تنقسم الى قسمين في مصر مصانع أهلية ومصانع حكومية ؛ و كان يطلق عليها اسم الطراز بالنسبة للزخارف التي تنقش على الملابس ؛ ولكنها عممت على دور صناعة النسيج بمصر ، و كانت تكتب اسم دور الطراز على قطعة القماش ؛ و صنعت في مصر

منسوجات و ثياب خاصة بالخلفاء مثل الخليفة العباسي المبدى، و هارون رشيد ، و الأمين و المامون و أيضا الخليفة المستعين العباسي سنة ٢٥٢هـ و للخليفة المعتز بالله سنة ٢٥٤ هـ .

وبالإضافة إلى ذلك فقد راجت صناعات الزجاج في البللور و الخزف و النقش على المعادن ، وكانت هذه الصناعات متقدمة بمصر منذ العصر الفرعوني ، واشتهرت الإسكندرية بصناعة الزجاج خلال العصر الإسلامي و صناعة الأواني و الأختام و أجاد المصريون الصناعات الخشبية و الحذ على الخشب منذ القدم .

و اتخذت الطابع الإسلامي على الاثاث و الدواليب و الموائد ، وقد كتب عليها كتابات عربية؛ كما اشتهرت بتمر منذ فجر الإسلام بصناعة الورق من البردي الذي كان ينمو في الدلتا و الفيوم ؛ و كانت تصنع الأوراق في بلدة بورة ؛ و في بلدة اخنو (محافظة دمياط) ، و كان يطلق عليها أسم قراطيس مصر ؛ و لم تعطل الا في القرن الرابع الهجري بسبب صناعة الكاغد في سمر قند ؛ كانت مصر تحتكر صناعة الورق في عصر الولاة ؛ و كان يقوم بها الأقباط إلا أنها أصبحت عامة بين المسلمين و القبط خلان القرن الثالث الهجري .

و برع المصريون ايضا في صناعة المعمار و البناء ، فبنوا الحمامات و الاسواق و القصور في مصر ، و شيدوا الدور الفاخرة مثل الدار البيضاء التي شيدها عبد العزيز بن مروان والي مصر و

الدار الذهبية سنة 67 هـ؛ و ظهر فن المعمار و البناء في مدينة الفسطاط و جامع عمرو بن العاص ، و مدينة العسكر ؛ و بنوا المقابر في المسجد ؛ و استخدموا كل الزخارف و المعمار القبطى في الابنية و في البيوت و القصور؛ كما ساهم المصريون في بناء المساجد بالشام و بيت المقدس ؛ و دمشق ، وغيرها.

أضف إلى ذلك از دهار صناعة السكر بمدينة ملوي بصعيد مصر و صنعت منها الحلوى التي كانت تباع بمدينة الفسطاط ، و ظهرت صناعة الصابون و زيت المصابيح ، و الصناعات الذهبية و النحاسية في بلاد الفيوم و الاشمونين ، كما ظهرت صناعة الحبال ؛ وحياكة الملابس و التي برع فيها المصريون و وضح ذلك في أوراق البردى العربية ؛ و ظهرت صناعات المغازل و الأنوال و أدوات الخشب المستخدمة في النسيج ، و صناعات الفنوس و المنجل و النورج و غيرها؛ و راجت صناعة اللحم و السلاسل و السروج و الكبابيش و آلات الحرب التي يحتاج إليها المحاربون .

كما ظهرت صناعة الفخار في مدينة الأقصر والمدن المجاورة لها، و ذكر ابن دقماق " ليس يعمل بديار مصر مثله و لا يقاربه " ؛ و راجت في قنا صناعة (البرام) و الأدوات الفخارية التي اشتهرت بجمالها و ودقتها ؛ و القدور التي تطهى فيها . الطعام ، و ظهرت صناعة المراوح من زعف النخيل و أحجار الطولعين و الكحل الأسود ، و صناعة دباغة الجلود و كان يطلق عليها صناعة الأنطاع.

3- التجارة

من أهم الأنشطة التي زاولها العرب من قبل الإسلام ، و تسلى بشى تاريخهم الطويل ، بعدما نزح العرب إلى مضر مع الإسلام سرعان ما اشتغلوا بها و مارسوها و انتقلوا في أسواق مصر المختلفة و عبر المدن في كافة أنحاء مصر ، و ساعدهم على ذلك استعمال الجمال في النقل و القوافل عبر الطرق الطويلة ؛ كسا ساعد نهر النيل على أعمال التجارة حيث اتصلت مدينة الإسكندرية بأسوان بواسطة هذا النهر ؛ فذكر المقدسي أن أسوان مدينة عامرة بأوجه التجارات المختلفة ؛ وذكر أيضا اليعقوبي أن بأسوان تجارة المعادن و نقطة التقاء تجارة مصر مع بلاد النوبة من الجنوب و بلاد البيجة من الشرق.

أضف إلى ذلك كانت البضائع تصل من الهند و الصين و تسلك طريق البحر الأحمر ثم تحط في ميناء القلزم و تنقل التجارة بالجمال إلى الفرما و من القرما على السفن حتى تصل موانئ ايطاليا و فرنسا و أسبانيا ؛ و ذكر وليم الصوري عن مدينة الإسكندرية بأنها كانت سوق العالمية ؛ و كانت تجارة البحر الأحمر تصل إلى ميناء راس بنأس المالية أو القصير ؛ و تحمل بطريق القوافل عبر الصحراء الشرقية و تحط في مدينة قفط و منها بواسطة الفيل حتى تصل الإسكندرية.

و بواسطة الطرق التجارية بين مصر و الشام و سائر بلاد . المشرق و بين مدن في الواحات و المغرب ، و مصر و إثيوبيا و أواسط افريقية زاد النشاط التجاري المصرى؛ و ذكر بعض المؤرخين أن

من القلزم ما بينقل إلى الحرمين و جدة و إلى عمان و الهند وصنعاء وعدن و الشمر و السند و جزائر البحر ، و من جهة تنيس و دمياط و الفرما تنقل التجارات إلى بلاد الروم و العزيمة و قبرس ، و الشام والعراق ، و من جهة الإسكندرية نقل التجارة المصرية إلى كريت و صقلية و المغرب و طنجة ، وغيرها من المدن.

ونجد العرب يهتمون بطرق التجارة المصرية منذ فتحها سنة ٢٠ هـ ، فقد أمر عمر بن الخطاب بإعادة حفر القناة التي تربط البحر الأحمر بالنيل شمال مدينة الفسطاط ، و كانت هذه القناة محفورة من عصر الفراعنة ، و البطالمة و الرومان أيضا و كانت تهمل أحيانا كثيرة و تجدد أحيانا أخري؛ و جددها عمرو بن العاص في زمن الخليفة عمر و أطلق عليها قناة أمير المؤمنين، نسبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ و أن إعادة حفر هذه القناة كان سنة 23هـ ، و ظل هذا الخليج مسلكا للتجارة إلى الحجاز و اليمن و الهند و لم يزل كذلك حتى قدم إلى مصر محمد النفسي الذكية ثائرا في الحجاز ضد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وكذلك أمر أبو جعفر واليه على مصر بردم هذا الخليج .

و أراد هارون الرشيد الخليفة العباسي أن يحفر قناة تصل بين القلزم و الفرما و هي فكرة قناة السويس الحالية فخوفه منها يحيى بن خالد البرمكي من أن شأن ذلك وصول الروم إلي الحجاز و المسجد الحرام ، فألغي هارون هذه الفكرة ؛ كما وصل إلى مصر خلال القرن الثالث الهجرى التجار اليهود الراذانية

والذين يجيدون اللغات العربية و الفارسية و الرومانية و الإفرنجية و الأندلسية و الصقلية ، و كانوا يجلبون إلى مصر الخدم و الجوارى و الغلمان و الديباج في جنود الغز و الفراء و النمور و السيوف ؛ و من بلاد الشرق كانوا يجلبون المسك و العود و الكافور و الدار صيني، 4:و كانت كافة البلدان تحمل تجاراتها إلى مصر و تفرغ فيها بضاعها مثل الطرائف و النيق و التحف و الطيب و الافادية و العقاقير و الجوهر و الرقيق و غير ذاك من صنوف المأكل و المشارب و الملابس.

4-الحياة العلمية

لعب مصر دورا هاما في الحركة العلمية على مسرح الدولة العربية الإسلامية خلال عصر الولاة ، وذلك منذ الفتح الإسلامي لها ، و اعتمدت الحركة العلمية في مصر على الدين الإسلامي ، وحملوا هذه النهضة الصحابة الذين نزحوا إلى مصر مع حركة الفتح الإسلامي و أيضا التابعين الذين جاءوا إلى مصر بقصد الإقامة فيها و نشر تعاليم الإسلام الحنيف ؛ و شجع الخلفاء هؤلاء العلماء على نشر العلوم بمصر و تعليم الشعب المصرى العلوم الدينية ؛ وقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب إلى مصر الصحابي حبان بن حبلة ليفقههم في الدين و ليكون معلما لم ؛ كما أرسل الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز فقيه أهل المدينة نافع ليعلم أهل مصر السنن و عاش مدة طويلة في مصر و أصبح له تلاميذ حملوا من بعده انه الرسالة في تعليم المصريين مختلف علوم الإسلام .

ونجد مصر بعد فترة زمنية بها نخبة من العلماء في شتى علوم الإسلام في الفقه و الحديث و الرواية و اللغة و الأدب و التاريخ و غيرها من العلوم التي راجت في ذلك الوقت ، وكان اشهر من علم بمصر عبد الله بن عمرو بن العاص و الذي اتبعه أهل مصر في الفتوى ؛ و له قرابة مائة حديث ؛ و قد دخل الإسلام عبد الله بن عمرو بن العاص قبل والده عمرو بن العاص ، و كان عالما في علوم القرآن الحديث و ذكر أبو هريرة "ما كان أحد أحفظ لحديث الرسول علية السلام مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فأنه كان يكتب ولا أكتب، و قال عبد الله حفظت عن النبي صلى الله عليه و سلم ألف حديث .

ومن أهم العلماء العرب الذين ذاع صيتهم في مصر الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي ولد بمصر سنة 61هـ ، وقد نال قسطا كبيرا من العلوم في مصر؛ و اشتهر بمصر أيضا يزيد بن أبي حبيب ولد سنة52هـ ، واخذ عنه الليث بن سعد و آخرون و مات يزيد بن أبي حبيب بمصر سنة ١٣٨ هـ ؛ و ظهر بمصر العالم الفقيه أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الذي ولي قضاء مصر(155 –164هـ) و مات سنة 170هـ ؛ ثم ظهر اعظم فقهاء مصر و هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى و هو من مواليد مصر سنة 94هـ ، و اشتغل بالفتوى و رواية الحديث و ذكر عنه أنه كان يحصل في السنة على خمسة آلاف دينار ؛ و كان يحسن القرآن الكريم و النحو و يحفظ الحديث و الشعر و مات سنة 175هـ و رثاه كثير من الشعراء .

و وفد العلماء إلى مصر لينهلوا من علومها، فقد جاء إلي مصر لطلب الحديث أبو سعيد عثمان (ت١٨٤هـ) ؛ و وفد إلى مصر ثالث الأئمة و هو. الإمام محمد بن إدريس الشافعي الذي ولد بغزة سنة 150هـ؛ و جاء مصر سنة 198 هـ و صنف بها كتبه و ذاع منها مذهبه و مات سنة 4 ٢٠هـ ؛ و اشتهر مذهب الإمام مالك بمصر اكثر من المذاهب الأخرى و ذلك لتوفر أصحابه بمصر منهم عبد الرحمن بن القاسم ، و يقال أن أول من ادخل علم الإمام مالك بمصر هو عثمان بن الحكم الجذامي و توفي سنة 163هـ ؛ و من الفقهاء المالكية بمصر طليب بن كامل اللخمي ، و سعيد بن عبد الله ؛ ولهما تلاميذ كثيرين تفقهوا في مذهب مالك بمصر.

و من أعظم من تفقهوا على مذهب مالك . أبو عبد الله عبد – الرحمن بن القاسم بن خالد و الذي صحب الإمام مالك مدة عشرين سنة ، وعنه أخذ سحنون (اشهر علماء إفريقية) ، و مات أبو عبد الله بن القاسم بمصر سنة 191هـ ؛ و منهم عبد الله بن وهب بن مسلم المصري الذي مات بمصر سنة ١٩٧هـ ، و منهم أشهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم القسي و مات سنة 204هـ ؛ ومن فقهاء المالكية بمصر عبد الله بن الحكم بن أعين و كأن رئيس طائفة المالكية بمصر ، و مات سنة ٢١4هـ و اخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر الذي مات سنة 257هـ ؛ و محمد بن عبد الله

بن الحكم ، و جاء إليه كثير من التلاميذ من إفريقية و الأندلس لينهلوا علوم مالك ،و مات عبد الله بن الحكم سنة ٢٩٨هـ .

أما المذهب الحنفي فكأن المذهب الخاص بأهل العراق، و فضله الخلفاء العباسيون على كل المذاهب الأخرى، وكأن القضاء في مصر يسير على مذهب الإمام أبي حنيفة على الرغم أن معظم أهلها يتبعون مذهب الإمام مالك ، فولى القضاء على مصر القاضى إسماعيل ابن اليسع الكندي(164 – 167هـ) و هو من إتباع مذهب أبي حنيفة و لكن أهل مصر لم يوافقوا على هذا القاضي فقام الخليفة المهدي بعزله ، على أنه بعد انتشار المذهب الشافعي بمصر اصبح ينافس المذهب المالكي ؛ فظهر من فقهاء الشافعية أبو يعقوب بن يوسف البويطى ، و كان من الذين لم يقروا بخلق القرآن الكريم فسجن ببغداد و مات سنة ٢٣١هـ في عهد الخليفة العباسي الواثق

و برز من فقهاء الشافعية في مصر عبد العزيز بن عمران الخزاعى المصرى و كأن مالكيا و لكنه غير مذهبه إلى الإمام الشافعى ومات سنة 334هـ ؛ و من الفقهاء الشافعية الربيع بن سليمان الجيزى الذي مات سنة 256هـ ؛ و لم يكن المذاهب الأخرى فكر في عصر الولاة في مصر ؛ و ظل جامع عمرو بن العاص هو مركز الحركة العلمية في مصر خلال هذا العهد ، فكأن الجامع ملتقى العلماء

و الأئمة و الفقهاء، و يلجا إليه الناس للاستفتاء ؛ و وفد إليه طالب العلم لتلقي العلوم ، و خرج أجيال عظيمة من هؤلاء العلماء.

وظهر بمصر من أئمة القراءات أبو يعقوب بن الأزرق يوسف ابن يسار المصري ؛ و من علماء إفريقية الذين أخذوا عن علماء مصر البهلول بن راشد (ت 183هـ) ؛ و من علماء الأندلس أيضا عيسى بن دينار ، و أنصرف إلى قرطبة و كان لا يداركه أحد في الفتيا و يقال أن مذهب مالك انتشر على يديه بالأندلس و مات في طليطلة سنة 212هـ.

الفصل السادس

قوة مصر في العصر الطولوني (254 -292 هـ/868-1905م)

تبين شخصية الدولة كشخصية الفرد، يمكن أن تنمو وأن تتطور وأن تتدهور؛ ومصر موضوع مثالي لمثل هذا البحث، نظرا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود، ولما تملكه من تاريخ حافل لقد كانت مصر أول أمة في التاريخ القديم نمت في نفسها عناصر الأمة بمعناها الكامل الصحيح ؛ وبعدها كانت أول دولة بالمعنى السياسي المنظم تظهر على مسرح العالم القديم؛ فامتلكت مقومات الشخصية القومية فى منطقة الشرق الأدني، وذلك منذ العصر القديم حتى أصبحت قلب العالم الإسلامي، وحجر الزاوية في العالم الإفريقي.

فدور مصر الحضاري في المقدمة التاريخية، في الموارد والطاقة وفي السياسة والحرب، وهي قلعة جغرافية لا تتكرر في أي ركن من أركان العالم، فمصر التجانس والوحدة البشرية والاستمرارية ثم الوطنية والقومية؛ حتى عندما جاء القائد العربى عمرو بن العاص وفتح مصر سنة 20هـ/641م ، اندمج العنصر العربي مع المصري، لأن العنصرين من أصل واحد مشترك؛ فكلاهما أقارب جنسيا منذ قبل الإسلام؛ فإختلاط الجنس العربي والمصري في الحقيقة زواجاً بين أقارب بعيدين، ولذلك فإن العرب عربوا مصر ثقافيا، والمصريون مصروا العرب جنسياً .

وحافظ القائد عمرو بن العاص والولاة المسلمون من بعده على هذا النمط حتى صبغت مصر بصبغة عربية إسلامية؛ حتى لم يات القرن الثالث الهجري إلا وقد تعربت مصر في ظل عالم اجتماعى محكم بين العرب والأقباط قائمة على حسن المعاملة والجوار، والذي ضمن قوة مصر الاقتصادية والسياسية والعلمية، والاحتفاظ بملامح الشخصية المصرية والعمل على استمراريتها في ظل الإسلام، فحافظ الحكام المسلمون على قوة مصر في كافة المجالات ففي الزراعة، والصناعات والتجارة؛ حتى تمتعت بمركزا اقتصاديا مرموقة على مستوى العالم الإسلامي في ذلك الوقت؛ وتبادلت سلعها مع كافة بلدان العالم، وقدم التجار إلى موانيها من كافة الجنسيات، وأصبحت عملاتها من أقوى النقود الذهبية علي مستوى العالم.

ونظر بعض الولاة العرب إلى قوة هذه الإمكانيات وملامح شخصية مصر القوية وأراد الإنفراد أو محاولة الانفراد بحكم مصر بعيدا عن مراكز الخلافة ؛ وكان اول هؤلاء الولاة عمرو بن العاص ، ربما هذا الذى ادي بالخليفة عثمان بن عفان بعزله عن مصر وتوليته عبدالله بن سعد بدلا منه ، وكانت هناك محاولة ثانية على يد السري بن الحكم فى عهد الخليفة المامون فى سنة 201هـ ؛ وحاول الانفصال بمصر وتكوين حكم ولاسرته ولكنه مات 205هـ ، وجاءت محاولة اخيرة على يد رجل يسمي عبدالعزيز بن الوزير الجروي ولكنه فشل بسبب مقاومة الخلافة العباسية له والقضاء عليه ، وكانت محاولات الاستقلال بشخصية مصر عن الخلافة مقدمة لاحمد بن طولون واسرته للانفراد بمصر عن الخلافة العباسية ، بل

الاستقلال بها استقلالا فعليا ، وابرزت الدولة الطولونية امكانيات مصر الهائلة فى مختلف المجالات واستغلتها استغلالا ايجابيا الذى ادي الى احتلال مصر مرتبة عظيمة بين بلدان العالم الاسلامي .

اولا: جهود احمد بن طولون لاحياء الشخصية المصرية :

ارتبطت قوة شخصية مصر الاسلامية بضخية قوية شخصية احمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر ، وجاء احمد بن طولون حاكما مصر نيابة عن الوالي بكباك المعين على مصر من قبل الخليفة العباسي المعتز 254هـ/868م ؛ وفضل باكباك البقاء في عاصمة الخلافة العباسية خوفا من المؤامرات التي تحاك بجنده، شأنه شأن القواد الأتراك الذين آثروا إرسال من ينوب عنهم في حكم الولايات التي تقطع إليهم؛ وبالتالي كان الخلفاء العباسيون يرحبون بذلك خوفا من استقلال هؤلاء الولاة بالبلدان التي يحكمونها؛ وكان هؤلاء النواب يرسلون الأموال الولاة النائبين عنهم ويدعون لهم على المنابر كما يدعي للخليفة؛ وذلك ما فعله أحمد بن طولون مع باكباك عندما حكم مصر نائبا عنه؛ واجتهد الخلفاء في مراقبة الولاة لئلا يستقلوا بولاياتهم، ولم يدر تجلدهم مراقبة نوابهم.

وصل أحمد بن طولون مصر في شهر رمضان سنة254هـ منتصف سبتمبر سنة 868م، ومعه بعض الجند ليتقوى بهم في هذا البلد الجديد، وسرعان ما فطن أبن طولون إلى إمكانيات مصر الاقتصادية والسياسية القوية، فأراد العمل على تأسيس دولة مستقلة يحكمها وأولاده من بعده؛ فاستقل بأمور البلاد،

وساعده على ذلك طول المسافة بين العراق ومصر، وإمكانيات مصر القوية، وقوة شخصيته؛ واستعان بالمصريين في إدارة شئون مصر، لأنه استطاع بثاقب بصره أن يعرف أن المصريين أقدر من غيرهم في إدارة شئون بلدهم .

ووضع وضع أحمد بن طولون أمام بصره إنشاء أركان الدولة ان المستقلة، فأقام في المدينة العسكر لمدة عامين ثم بني عاصمة جديدة لنفسه ولجنده باسم القطائع، واتسعت هذه المدينة حتى اتصل عمرانها بمدينتى العسكر والفسطاط، وازدحمت بالأسواق والطواحين والحمامات والأفران حتي نافست بمنشآتها مدينة الفسطاط؛ وكانت على نفس طراز مدينة سامراء التي شيدت بالعراق سنة221هـ ؛ وهو بذلك وضع محاولة السرى بن الحكم الذي استقل بمصر وأراد أن يجعلها في أبنائه من بعده، وجعل السرى العاصمة في مدينة تثيس، بدلا من الفسطاط؛ حتى لا تتمكن الجيوش العباسية من القضاء عليه؛ فوضح أحمد بن طولون بهذه المحاولة منهاجا له ولحركته الاستقلالية بمصر؛ فمجرد وصوله لمصر قام بعزل الموظف العباسي عامل الخراج– أحمد بن المدبر لإجحافه على الشعب المصري في جمع المال مما أدخل السعادة في قلوب المصريين، وزاد حبه في قلوبهم؛ فصار الحاكم الإداري والمالي والعسكري لمصر، وقضى على الفتن الداخلية، وغرس الامن والآمان في نفوس المصريين، وعم الرخاء في ربوع البلاد؛ حتى بعد

وفاة باكياك تولى مصر يارجوخ الذي كان والد زوجة أحمد بن طولون، فأرسل له رسالته المشهورة "تسلم من نفسك لنفسك" .

استطاع بعد قليل أحمد بن طولون أن يؤسس دولة قوية في مصر ظهرت فيها ملامح شخصية مصر من قوة الحاكم وقوة الإقليم؛ فكون جيشا قويا كثير العدد والعدة وذلك لحماية أمن مصر، وصل عنده مائة ألف جندي؛ وأصلح مقياس النيل بالروضة؛ وشيد اليمارستان وهو المستشفى الذي أنفق على بنائه ستين ألف دينار، وذلك لعلاج المرضى المصريين؛ فقدر المصريون كل ذلك، فأحبوا ابن طولون، وأستحوذ ابن طولون على ود وتقدير المصريين، ويعتبر من أهم جوانب الشخصية المصرية في العهد الطولوني ترابط الحاكم والمحكوم معا؛ .وتفرغ لح بن طولون لتصفية الأجواء الداخلية من القلاقل والدسائس المحيطة بها.

واستطاع ابن طولون أن يقضي على أحمد بن المحبر كاتب الخراج في مصر، وكان ابن المدبر من دهاة الناس وشياطين الكتاب، واراد اين المدبر ، يكسب ود ابن طولون فأرسل إليه هدية مقدارها عشرة آلاف دينار، غ ير أن ابن طولون رفضها وعرف ابن المدبر قوة شخصية ابن طولون، فحاول تحسين علاقته به وذلك بعمل مصاهرة بتزويج ابنته من خمارويه بن أحمد بن طولون، وجعل لها كل ما كان له بن عقار ثابت في مصر؛ ومع ذلك لم تستمر العلاقة الحسنة بين الرجلين طويلا، بالرغم من الزواج

السياسي الذي تم بينما بسرعان ما عزل إبن طولون ابن المدين من منصبه، بعد أن احتل بلاد الشام، وحسبه في سنة 265هـ ، ومات ابن المدبر في حبسه في صفر سنة 270هـ ، وقيل إنابن طولون قتله .

كما قضى ابن طولون على الكاتب شقير الذي كان يتجسس على ابن طولون إلى الخليفة العباسى، لأن شقير أرسل رسالة إلى الخليفة يحذره من استقلال ابن طولون بمصر؛ ولكن ابن طولون كانت تربطه علاقات طيبة مع كبار رجال الخليفة في مدينة سامرا، وخاصة الحسن بن مخلد الذي أحتفظ برسائل شقير كاتب أحمد بن المدبر– وأرسلها لأبن طولون في مصر، وحذره من هذه الشخصية، دون أن يطلع عليها الخليفة العباسي، فقام ابن طولون بعزل شقير بعد أن تعرض للعنف من جانب شرطته؛ وبذلك تخلص إبن طولون من اهم شخصيتين من مثيري المؤامرات، ضبده وهما ابن المدبر والكاتب شقير سنة 256هـ .

أما في الداخل فقد قضى على ثورة ضده بقيادة رجل يسمي ابن الصوفي العلوي، وجمع حوله معظم قبائل الصعيد، واستولى على إسنا بصعيد مصر، وخربها وقتل أعدادا كبيرة من أهلها؛ وهزم ابن الصوافي جيشا لابن طولون، ومثل بجثة قائده (ازدار)؛ ولكن ابن طولون أرسل جيشا آخر بقيادة (بهم بين الحسين) الذي هزم أبن الصوفي عند أخميم بصعيد مصر، ثم فر اين الصوفي إلي الواحات بصحراء مصر الغربية ومنها إلى أسوان، ثم عبر البحر الأحمر إلى مكة المكرمة حيث قبض عليه بها، وأرسل إلى

ابن طولون بمصر وأعلن بان الصوفي توبته وعفى عنه ابن طولون، ورحل الى المدينة المنورة وعاش بها حتى مات.

و أضف إلى ذلك استطاع ابن طولون القضاء على ثلاث ثورات داخلية وذلك لتثبيت دعائم حكمه، فالأولى قضى علي ثورة رجل علوي يسمى بغا الأصفر حيث عاد برأسه قائد ابن طولون (بهم بن الحسين) من الإسكندرية، والثانية بقيادة رجل يسمي أبو الدوح من بقايا رجال ابن الصوفي العلوى وكان يتنقل بين الصعيد والإسكندرية والبحيرة، إلى أن أرسل ابن طولون عدة حملات قضت عليه وانتهي الأمر بقتله؛ أما الثورة الثالثة فكانت بقيادة رجل يسمي ابو عبد الرحمن العمرى ؛ وأشيع عنه لأحمد بن طولون أنه يريد الاستقلال بمصر؛ و هزم عدة حمالات عسكرية من قبل أحمد بن طولون؛ ولكن قتل هذا الرجل على يد غلامين من العرب؛ وأنتهت ثورته في مصر العليا، فاطمئن ابن طولون على خلو الوضع الداخلى بمبن منهم في القلاقل .

وقام ابن طولون بتصفية الأوضاع الداخلية من الموظفين المرتشين والعمال الخونة؛ فأودع في السجن حوالي ثمانية عشر ألف شخص من العمال والموظفين المرتشين والخارجين على سياسته حتى أنه اضطر لسجن القاضي بكادين قتيبة عندما خالف سياسية أحمد بن طولون في لعن الموفق طلحة أخو

الخليفة العباسي؛ ووضع أحد أصدقائه بالسجن وهو "أبو المفضل" متولي النفقات عندما ثبت أنه أختلس بعض الأموال الخاصة بالدولة، وبذلك أصبح الجهاز الإداري والمالي الدولية ابن طولون نظيفا.

وظهرت قوة شخصية أحمد بن طولون أثناء نزاعه مع الموفق طلحة (اخ الخليفة العباسي المعتمد) وهو من أقوى الشخصيات العباسية؛ و أوكل إليه جمع الأموال من الولايات العمليات الإسلامية كلها للقضاء على ثورة الذبح؛ وبدا النزاع عندما أرسل الموفق رسالة مع أحد أتباعه ويدعى (تحرير)، وطلب بها من أحمد بن طولون الأموال التي ترسلها مصر إلى الخلافة فارسل له أحمد بن طولون مليون ومائتي الف دينار؛ استصغرها الموفق طلحة؛ وقيل أيضا أن الخليفة العباسى المعتمد أرسل لأحمد بن طولون رسالة سرية يأمره بعدم إرسال الأموال إلى الموفق، وفي نفس الرسالة حذره من الكاتب تحرير رسول الموفق بأنه قادم إلى مصر لتأليب الجند على أحمد بن طولون وبث الفتنة والدسائس لهدم دعائم الكيان المصري القوي الذي يسير ابن طولون في بنائه.

اتخذ ابن طولون حنره، بل استقبل تحرير استقبالا حسنا؛ ولكنه جعله بمعزل عن رجال الدولة وعول على عدم اتصاله بهم، وجعله بمعزل عن رجال الحكم الطولونى ثم أعطاء الأموال للموفق وودعه وداعا عظيما حتى مدينة العريش؛ وبعد ذلك تفحص ابن طولون الرسائل التي كانت مع تحرير والتي تؤلب بعض الشخصيات ضد أحمد بن طولون ؛ وعلى الفور أوقع بهم أشد أنواع العقاب بسبب خيانتهم وانضمامهم

إلي الموفق طلحه، والتجسس ضده؛ ولذلك بادر الموفق إلى عزل ابن طولون عن ولاية مصر، لأنه يعلم بمدى ثراء مصر، وقلة المبلغ المرسل إليه، وولي مكانه أماجور الذي رفض ولاية مصر لعدم قدرته على مواجهة ابن طولون ؛ وهنا وقعت الضغينة بين أبن طولون والموفق، ولعن كل منهما الآخر، وتبادلا الرسائل التي اتصفت بالعنف والصراع، ودارت الفتن بين الرجلين .

ومهما يكن من أمر، فإن محاولات الموفق طلحة قد باءت بالفشل؛ وأصبح أحمد بن طولون صاحب الأمر والنهي في دولة واسعة امتدت من شمال بلاد الشام حتى برقة؛ واثر الموفق الصلح مع ابن طولون؛ وتعهد كل منهما بعدم لعن الآخر على المنابر، وعدم تعرض كل منهما للآخر؛ بل تبادلا الاعتذارات بينهما، وكان ذلك في سنة 270هـ ؛ وبذلك فرغ أحمد بن طولون من اعتماد الخصوم، وراح يستغل إمكانيات مصر ليلعب دورا هاما على مسرح الأحداث الداخلية والخارجية؛ ونجد ابن طولون لا يتورع في وضع ابنه العباس في السجن عندما حاول النيل من استقلال مصر ومحاولة اقتطاع جزء من هذه الدولة المترامية الأطراف، فحاول الاستقلال بإقليم برقة؛ وذلك أثناء غياب والده لضم بلاد الشام لمصر؛ كما حاول العباس ضم القيروان إلى برقة؛ ولكنه هزم على يد الخوارج الأباقية والأغالبة؛ واعتكف ببرقة؛ ولكن أحمد بن طولون أرسل إليه جيشا وهزمه سنة 268هـ ، وأودع العباس في السجن؛ وقتل كل

من كان معه؛ وهنا انتهي من كل الصعوبات التي قابلته، وتفرغ لبناء دولة قوية؛ والتي أصبحت أقوى من مركز الخلافة العباسية نفسها.

ثانيا- ملامح شخصية مصر الداخلية في العصر الطولوني(254 -292هـ /868 – 905م)

ظهرت شخصية مصر كدولة مستقلة ذات مظاهر وملامح مميزة خلال العصر الطولوني، وإن كانت تابعة اسما فقط للخلافة العباسية؛ فتفاعل العنصر العربي بمصر مع أبناء البلاد فنتج تيار حضاري إسلامي ميز ملامح مصر الإسلامية خلال العصر الطولونى، وظهرت مصر كخلية مضطرمة في قلب العالم الإسلامي، بل وارتبطت بجميع أقاليم العالم الخارجي مما زاد من عملية الإخصاب الحضارى؛ فتشبه أحمد بن طولون في حكمه لمصر بالملوك؛ فأتخذ الحجاب والكتاب والمواكب العظيمة والموائد ،وسك الدنانير باسمه منذ سنة266هـ ، بجالب اسم الخليفة، ولم يتخذ الوزراء في بلاطه، إنما اتخذ الحجاب والكتاب لأنه كان واسع السلطان و النفوذ؛ فكان له كتاب السر الخاصين يجلساته، وكتاب الإنشاء الذين يكتبون مراسلات الطولونيين إلى ملوك وأمراء العالم الخارجي.

وبرزت في مصر وظيفة عمال البريد أو أصحاب البريد، اختصوا بكتابة التقارير بكل ما يجري في البلاد، وعملوا أيضا بالتجسس للطولونيين بجانب إنجاز الرسائل وتوصلوا، وظهرت الشرطة الطولونية وحققت الأمن بين الشعب، وقام القضاة بدورهم في إرساء قواعد العدل بين الناس وتحت مراقبة ابن طولون؛

ونظم السجون بحيث كان السجين يقوم بصناعة بعض الأشياء وهو في السجن وتباع لحسابه، وهذا ما يشبه النظام الحالي؛ وأشرف على الأقاليم والكور وساعده في ذلك الأمراء الطولونيون؛ وأقام سباق الخيل في احتفال مهيب في ساحات القصور الذي اعتبره المؤرخون من عجائب الإسلام وسمع شكاوي الرعية وتظلماتهم قبل كل صلاة؛ وكان يستمع إلى كل ما يدعو إلى الورع وتقوى الله عز وجل

وبرزت ملامح شخصية مصر الطولونية بكل وضوح وقوة وعلى كافة أنشطة الحياة العامة؛ فتمتعت مصر بالرخاء والثراء على مختلف مجالاتها؛ وقد ظهر ذلك على حكام البيت الطولوني والمصريين؛ حتى قيل أن أحمد بن طولون ترك خزانته عشرة مليون دينار، وحوالي عشرة آلاف فارس من المماليك، ومن الحرس أربعة وعشرين ألف مملوك، وثلثمائة حصان، وآلاف البغال والحمير والجمال، ومائة سفينة حربية؛ وأنتجت الزراعة إنتاجا وافرا نتيجة لاعتناء الطولونيين بها، وظهرت الترع وأقيمت المقاييس العددية على النيل وألغيت معظم الضرائب مما خفف من على كاهل الفلاحين المصريين، وشجعهم على امتلاك الأراضي واعطاهم حق الملكية؛ فزاد خراج الارض و بلغ في عهد أحمد بن طولون 4300000 (اربعة ملايين وثلثمائة الف دينار) ، بعد أن كان في سابقيه 800000 مليون دينار ، ورخصت الحبوب فكان كل عشرة ارادب من القمح بدينار واحد ، واستمر ذلك في عهد خمارويه ابنه ، ولا شك ان المصريين شعروا برغبة العيش ذلك الوقت .

أما في مجال الصناعات في مصر فحدث تقدم كبير في صناعة النسيج اليدوي وأنتجت أعظم أنواع النسيج من القطن والصوف والكتان والتي أنتجته مراكز النسيج المصرية في مدن تنيس ودمياط والإسكندرية والاشمونين والبهنسا وأسيوط وأخميم، وراجت صناعة الحرير في الإسكندرية وديبق؛ واشتغلت بالنسيج دور الطراز الحكومية لصناعة ثياب رجال الدولة والأمراء والوزراء؛ كانت تنتج أنواع الديباج والوش، بلغت منتجاتها أسواق العالم الإسلامي والخارجي شهرة وجودة؛ وأرسلت المنتجات المصرية على عاصمة الخلافة كانت هناك في مصر مصانع حرة تعمل ثياب ونسيج للتصدير والتجارة، وكانت تدفع للحكومة ما عليها من ضرائب؛ وتقدمت صناعة الأسلحة المختلفة الخاصة بالجيش والشعب؛ وازدهرت صناعة أوراق البردى وصدرتها مصر لأوربا، وصناعة الصابون والسكر والزجاج والمعادن والخزف؛ وقام بهذه الصناعات الصناع المصريون سواء من العرب أو من الأقباط واستعملوا الفنون الفارسية والبيزنطية في صناعاتهم بجانب الفن القبطى الإسلامي .

وحدث إرتباط وتقدير متبادل بين الطولونيون والمصريين، فحرص أحمد بن طولون وكبار رجال دولته على العطف على الرعية والشعب، فكانوا يقدمون لهم المآدب والمجالس ويجلسون معهم لنيل رضاهم؛ وشيد أبن طولون انيمارستان لعلاج مرضى المصريين، وشيد لهم حمامين شعبين، وعمل جاهدا على كسب رضا الشعب المصري؛ وأيضا كان الأقباط واليهود في أحسن حال لأن الطولونيين عاملوهم على قدم

المساواة بالمسلمين والعرب وأعفى ابن طولون الرهبان في الأديرة من الضرائب والجزية؛ وتبرع بمبلغ ثلاثين ألف دينار لبعض المسيحيين على أثر حريق شب بالحي المجاور لكنيسة العذراء مريم؛ وذكر لينبول أن الأقباط لم يشهدوا عصرا تمتعوا فيه بهدوء كبير وتسامح عظيم مثل عهد الطولونيين ، كل ذلك أدى الترابط الاجتماعي بين الرعية من جانب وبينهم وبين الحاكم من جانب آخر، وهذا من مميزات شخصية مصر الإسلامية في العصر الطولوني ؛ فعم الأمن والهدوة بين الحاكم والمحكوم، لدرجة أن خمارويه بن أحمد بن طولون أنشأ حديقة الحيوانات احتوت على كافة ألوان وأشكال الطيور والحيوانات المستأنسة والمتوحشة، وكان ذلك يدل على رفاهية مصر وسبقها في ذلك العالم الإسلامي.

وبلغت مصر مكانا بارزا في الحياة العلمية والفكرية؛ فكان أحمد بن طولون يخالط العلماء والأدباء، ويشجع منهم بإعطائه الهبات والعطايا؛ فظهر علماء في شتى علوم الدين والدنيا، منهم محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت268هـ) وكان من أهل النظر والحجة وقدم إليه الناس للانتفاع بعلمه من المغرب والأندلس، وله مصنفات كثيرة؛ ومن أهل العلم المشهورين بمصر محمد بن الأصبغ بن الفرج (ت275هـ)؛ والعلامة ابن المواز ابو عبد الله بن ابراهيم الإسكندراني، وكان رئيسا لمذهب مالك بمصر ومات بها سنة281هـ ؛وظهر العالم دوح بن الفرح الزبيري (ت306هـ)؛ وأحمد بن مسكين الذين ألقي علمه في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط خلفا لأبيه؛ وأحمد بن خالد و الإسكندراني (ت309هـ).

بالإضافة إلى ذلك ظهر العالم المشهور الإمام المزني أبو إبراهيم إسماعيل ابن عمر المصري صاحب الإمام الشافعي (ت264هـ) والذي صنف الجامع الكبير والجامع الصغير ومختصر المختصر؛ والعالم الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادي وكان عالما في الفقه والدين (ت270هـ)، وهو الذي ألقى أول درس في جامع أحمد بن طولون بالقطائع فكافأه على ذلك بألفي دينار، وتتلمذ علي يديه عدنان بن أحمد بن طولون؛ وظهر العالم ابوزرعه محمد بن عثمان الدمشقي قاضى مصر (ت302هـ) ؛ والقاضي بيكار بين قتيه(ت270هـ) ولد كثير من المؤلفات ؛و القاضي أحمد بن عمران و العالم الطحاوى الذى ألف معاني الآثار وأحكام القرآن الكريم والتاريخ الكبير واختلاف العلماء وله كتاب آخر في الشروط.

وذاعت شهرة كثير من العلماء وأصحاب الفكر، فمنهم رجال الحديث الذي نبغ منهم النسائى صاحب كتاب السنن، والذي سكن مصر ولم يغادرها إلا في سنة302هـ ، وصنف كتاب السنن الكبرى والصغرى ومستند مالك وغيرها؛ وبرز من المؤرخين عبد الرحمن بن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر؛ وأبو رفاعة بعبارة الفارسي صاحب كتاب التاريخ على السنين؛ ومن علماء النحو محمد بن عبد الله بن مسلم الذي علم أولاد خمارويه علم النحو ، وفي علم الطب سعيد بن نوفل من أهل الذمة ، وسعيد بن البطريق المؤرخ، وظهر من الأدباء ابن عبد الله، ومن الشعراء الحسين ابن السلام الجمل؛ والشاعر قعدان

بن عمرو، والقاسم بن يحيى، ومحمد بن داود ؛ وهناك كتاب اشتمل على اثنى عشر كراسية مدون به أسماء الشعراء الذين كانوا يحيطون أحمد بن طولون أثناء احتفالاته بالميدان بمدينة القطائع.

وأيضا ظهرت قوة ملامح شخصية مصر الطولونية في عصر خمارويه بن أحمد بن طولون، وذلك بعد موت والده سنة 270هـ ؛ فحافظ على استمرارية قوة مصر وحافظ على أملاك والده، وسار على نفس سياسته في إحياء الشخصية المصرية؛ وظل خمارويه في حكم مصر اثنى عشر سنة، ما بين سنتى 270 – 282هـ وأجزل عطاء الجند، وأعتق الأموال والهبات على أهل العلم؛ بل بالغ في حياة اللهو والترف، فقد ورث عن أبيه دولة قوية وأموالا طائلة، فكان يدخل في خزانته كل عام بعد مصاريفه ونفقاته ألف ألف دينار؛ كما أستقدم عناصر من الجند آسيا الوسطى لتقوية الجيش الطولونى، بالإضافة إلى ضم طائفة من المصريين إلى الجيش، وعناصر من العرب كونوا فرقة عسكرية أطلق عليها أسم المختارة.

وتقرب خمارويه إلى الشعب المصرى فشمل بعنايته اهل الذمة ، ونعنوا في عهده بحرية لم يشهدوها من قبل؛ حتى أحبه أهل الذمة والمسلمون على النزاهة ورخصت أسعار السلع بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل ؛ وانتشر الأمن والأمان في ربوع البلاد؛ حتي في عهد الخليفة العباسي المعتضد الذي تولى الخلافة سنة278هـ /892م ، اعترف بنفوذ مصر ما بين برقة غربا إلي أعالي الفرات شرقا، ولمواصلة

الود مع الخلافة العباسية أرسل خمارويه مبلغا من المال إلى الخليفة مقداره خمسمائة ألف دينار بجانب الهبات والهدايا.

وخير دليل على ثراء مصر، مظاهر الزواج الذي تم بين الخليفة المعتضد الذي تزوج من قطر الندى أبنت خمارويه سنة282هـ ؛ وذكر المؤرخون عنه أنه أعظم عرس أو حفل زواج في التاريخ؛ حتى قيل أن الخليفة استحوذ على جزء كبير من ثراء مصر في صورة هذا الزواج، والذي انفق عليه خمارويه إكثر من مليون دينار، وبذلك جعل خمارويه الخلاقة " العباسية توافق على وراثة حكم مصر في أرته بعد وفاته، وتوفي سنة282هـ ، بعد نعمت مصر بأرقى درجات الرخاء، ووصلت شهرتها آفاق العالم الإسلامي.

ونرى أن أحمد بن طولون منذ قدومه إلى مصر سنة ٢٥4هـ، وبذل قصارى جهده في إظهار ملامح شخصية مصر الإسلامية، حتى ضارعت مصر بغداد وسامراء؛ وحافظ إبنه خمارويه على نفس سياسة أبيه منذ توليه الحكم سنة270هـ ، فظهرت شخصية مصر قوية؛ فاشتهرت بخزانة عامرة بالأموال، وبلادا مستقرة؛ وعاش شعبها منعما بالرخاء والرفاهية، واتسعت دولة مصر الطولونية تضم أملاكا واسعة خارج حدودها .

ثالثا: امتداد النفوذ المصرى على البلدان المجاورة في العهد الطولوني:

وصلت مصر إلى درجة من القوة في عهد أحمد بن طولون تعدت قوة الخلافة العباسية، فشرع في بسط نفوذ مصر خارج حدودها لتكوين دولة واسعة النطاق تقترب من الإمبراطورية؛ وليكون مركز هذه الدولة مدينة القطائع عاصمة مصر آنذاك، فسرعان ما مد بصره نحو بلاد الشام الامتداد الطبيعى لمصر، وذلك لعمل جبهة قوية من البيزنطيين، فتوجه بحملة عسكرية نحو بلاد الشام لتأمين حشود مصر، فوصل إلى الرملة وفلسطين وقدم له حكامها محمد بن دامغ فروض الطاعة والتبعية، فثبته في حكمه تحت زعامته؛ ثم خضعت له مدينة دمشق وحمص وحماه وحلب؛ ثم استولي على انطاكية في سنة265هـ؛ ثم استولى على ديار مصر سنة 268هـ ؛ وضرب احمد بن طولون دنانير ووضع عليها اسمه وفرض نفوذه على منطقة الشام باسرها .

وسرعان ما ضمم ابن طولون منطقة الثغور ، وضم منطقة المصيصة وطرسوس ، ومنطقة حران ثم اقام الحصون عليها ووضع فيها الجنود وحشد آلاف الحرب لتأمين الحدود الشمالية ضد البيزنطيين؛ ثم أر من حملة إلى الحجاز وذلك ليمنع الدعاء للموفق طلحة على منابر مكة؛ وبذلك إمتدت الحدود المصرية إلى أعالي الفرات وجبال طوروس في الشمال حتى طرابلس من الغرب، وأصبحت مصر حصن الإسلام وخط دفاعه الأول ضد البيزنطيين، وبذلك إذا جاز لنا أن نستعير اللفظ فقد أصبح أحمد بن

طولون إمبراطورا على دولة واسعة النطاق؛ حتى أن أحد ثوار بلاد المغرب وهو "المفرج بن سالم قام بثورة ضد أمير القيروان وانفصل بمنطقة كبيرة تقع بالغرب من برقة، وطلب الانضمام لمصر تحت زعامة ابن طولون؛ ولم يلتفت له ابن طولون لأنه كان لا يهتم بسلطان الأغالبة بلاد المغرب؛ وهذا يفسر لنا رغبة هذا الثائر للانضمام إلى دولة قوية قادرة على حمايته، وانتهت ثورته دون الاتصال بحكومة ابن طولون في مصر.

وأقدم ابن طولون على حركة جريئة لو قدر لها النجاح لتغير تاريخ العالم الإسلامي عامة، وتاريخ مصر الإسلامية خاصة، وذلك عندما أراد نقل كرسي الخلافة من العراق إلى مصر، ودعى الخليفة العباسي المعتمد سنة ٢٩٨ هـ للقدوم إلى مصر والإقامة بها؛ وبالفعل خرج الخليفة من سامراء، ولكن عيون أخيه الموفق طلحة رصدته، وقبض على الخليفة قبل ان يفارق حدود العراق سنة 269هـ ، ولو قدر لهذه الحركة النجاح ربما أصبحت مصدر مقرا للحكومة العباسية تحت زعامة ابن طولون .

ولم يغفل أبن طولون في ظل تلك الظروف عن العدو التقليدي للمسلمين وهو الإمبراطورية البيزنطية المتاخمة لحدود دولته الواسعة، فعمل على تخليص الأراضي الإسلامية التي استولى عليها البيزنطيون من الخلافة العباسية، ولذلك دعم قواته البحرية وجدد دور بناء السفن، وأنشأ قواعد بحرية قوية في دمياط والإسكندرية، حتى صار نحر ألف قطعة بشرية حربية وتجارية تمتلكها مصر؛ وبني ثكنات عسكرية لجنوده

خارج مدينة القطائع بعدم إكتظت بهم ؛ وجدد حصون عكا ويافا بل اتخذ منها قواعد بحرية قوية؛ ووضع وحدات من أسطوله في ثغر طرسوس أقصي بلاد الشام، وذلك لتخليص البلدان الإسلامية من أيدي البيزنطيين، وأرسل عدة حملات إلي آسيا الصغرى 264هـ ، وخلص كثيرا من الحصون والبلاد الإسلامية حتى حدثت هدنة بين ابن طولونو الإمبراطور البيزنطي؛ وأيد الخليفة العباسي حكم الثغور لاحمد، بن طولون.

وارسل الإمبراطور البيزنطي الهدايا وبعض الأسري المسلمين الذين كانوا في الأسر عند البيزنطيين وعلى رأسهم عبد الله بن رشيد حاكم الثغورن ومن جملة الهدايا مصاحف قرآنية كريمة مخطوطة، وحدث صلح بين الفريقين سنة265هـ ؛ وتجدد القتال على جبهة الثغور في سنة 268هـ ، حيث هاجم أمير طرسوس "طنمش" ومن بعده خلف الفرغاني أملاك البيزنطيين في آسيا الصغرى واستولوا على كثير من الحصون؛ وواصل حاكم طرسوس بازمان أيضا غارته الى بلاد الروم، وتوغل المسلمون في بحر ايجة حتى مضيق الدردنيل.

وأصبحت الإمبراطورية الرومانية في وضع الدفاع بعد أن كانت في وضع الهجوم، وذلك بسبب قسوة ابن طولون الضاربة؛ وذاع صيت قوة مصر وبذوغ نجم شخصيتها القوية على المنطقة بأسرها؛ وتمتعت بالمن حيث صارت طريقا الحجاج والتجار بين بلدان أفريقية والحجاز والعراق؛ واحترم الأغالبة

في أفريقية حكومة مصر الغنية، وأصبحت مروهوبة الجانب من كافة البلدان المحيطة بها، وقوة يعمل لها ألف حساب ، وظلت كذلك، حتى توفى مؤسس وهو احمد بن طولون سنة 270هـ ، وحل محله ابنه خمارويه .

وحافظ خماوية على نفس مسار والد، واحتفظ بحدود الدولة الواسعة وشخصية مصر القوية، وانتصر على جيش العباسيين عندما حاولوا الهجوم على الشام عقب وفاة أحمد بن طولون، وذلك في معركة تسمى بالطواحين بين الرملة ودمشق على نهر ابي فطرس – وذلك في سنة 271هـ ؛ وانتصر خمارويه على جيش عباسي آخر كان بقيادة أسحاق بن كنداج في موقعة الرافقة بالشام، وظل الجيش المصري يتعقب الجيش العباسي حتى مشارف مدينة سامراء و قضى خمارويه على معارضة محمد ابن ابي التاج وهزمه فى معركة ثنية العقاب بجوار دمشق؛ وارتفع شأن خمارويه في نظر معاصريه، وحافظ على أملاك أبيه الواسعة.

واعترف الخليفة العباسبى بنفوذ خمارويه وبحدود مصر الخارجية، كما أقر بخمارويه في الحكم له ولأولاده ولمدة ثلاثين عاما، وذلك على أثر الصلح بين الطرفين؛ وإنهاء حالة الحرب بين مصر والخلافة العباسية؛ ودخل جميع حكام الثغور الإسلامية تحت طاعة خمارويه، ودعى له على منابر الثغور والعواصم

بآسيا الصغري وأثر البيزنطيون السلام على الحرب مع خمارويه؛ ونعمت مصر بفترة عظيمة من الهدوء والسلام في ذلك الوقت .

و وهنا امتازت مصر في ذلك الوقت بشخصية قوية تحت زعامة الطولونيين، وظهرت مقومات هذه الشخصية واضحة جلية، فدولة قوية في الداخل وقوية على النطاق الخارجي واعترف بذلك الإمبراطور البيزنطي والخليفة العباسى على السواء؛ وصاحب ذلك تقدم حضاري كبير لدى المصريين، وكشفوا عن إمكانياتهم الفريدة عندما أتاح الطولونيون للشعب المصرى المشاركة في كافة المجالات، وبالتالى كسب" الطولونيون تأييد الشعب المصري له، وهذه من علامات الدولة الناجحة وأحد علامات ملامح الشخصية القوية لدولة حتى وفاة خمارويه بن أحمد بن طولون سنة 282هـ .

رابعا– ضعف مصر في نهاية العصر الطولوني

بدأت ملامح شخصية مصر الطولونية القوية تمر بفترة من الضعف ؛ وكان اول هذا الضعف هو وصول حكام ضعاف من البيت الطولوني بعد موت خماروي ، فقدوا حب الشعب المصرى بسبب الاضطرابات والفتن التنظهرت فى عهد هؤلاء الحكام ، الامر الذى سيؤدي الى زوال الدولة الطولونية؛ ولكن تبقى ملامح الشخصية المصرية كامنة داخل نفوس المصريين؛ فخلف خمارويه ابنه الأكبر ابو العساكر حبيش منذ سنة 282هـ ، وكان صغيرا في الرابعة عشر من عمره لا يحسن من الأمور شيئا؛

اجتمع حوله مجموعة من الغلمان المترفين من أمثاله، أفسدوا عليه حياته وتصرفاته كحاكم لدولة مترامية الأطراف؛ فقام أبو العساكر بقتل عمه ابي العشائر (نصر بن أحمد بن طولون)؛ فأعلن الجند تذمرهم من أبي العساكر ونادوا بخلعه من الحكم؛ وأعلن قادة الجند في مصر بضرورة عزله وأنكروا تصرفاته وتنصيب غيره لحكم مصر.

وأعلن جند مصر العصيان، وزاد الأمر سوءا عندما أعلن طفج بن جف حاكم دمشق، وابن طوغان أمير الثغور إسقاط اسم ابى العساكر من على المنابر، ولم ينزعج ابي العساكر من ذلك؛ ولذلك سارع الجند وكبار رجال الدولة وكتبوا محضرا بعزل أبي العساكر، فوثبوا عليه وقتلوه، واستولوا على أمواله؛ وترك معظم هؤلاء القادة الجندية وصاروا من أكابر زراع وتجار الريف المصري؛ وكان قتله في سنة 283هـ ، بعد أن حكم مصر لمدة تسعة أشهر واثني عشر يوما؛ عاشت فيها البلاد المصرية فترة من القلاقل والاضطرابات و الفتن الداخلية لم تراها منذ عهد أحمد بن طولون.

ثم تولى الحكم الطولوني وسط هذه لنقلاقل أبو موسى هارون، وقيل إنه الذي قتل أخاه الحاكم السابق؛ وكان صبيا فجعلوا عليه وصيا هو ابو جعفر بن أبي؛ فسرعان ما تخلص أبو موسى من حاشية أخيه السابق؛ ولكن لم يكن في وسعه إصلاح ما قد فسد من الأمور؛ فثار جنده الجند أيضا؛ ووقع أبو موسي هارون في نفس خطا أخيه أبي العساكر، فقام بقتل عمه(ربيعة بن أحمد بن طولون)، لانه أنكر

عليه ولايته لمصر لصغر سنه وعمت الاضطرابات بين طوائف الجند؛ وزاد الطينة بلة أن الخليفة العباس المعتضد زوج أخت أبو موسى قد توفي سنة289 هـ ، وتولى الخلافة المكتفى بن المعتضد ؛وهاجم القرامطة أملاك مصر في بلاد الشام، وانفق أبو موسى كثيرا من أمواله، ونقد كثيرا من قواته في سبيل رد هجماتهم عن بلاد الشام.

أضف إلى ذلك وقوع الوحشة بين الخليفة العباسى المكتفي وأبي موسي هارون، لأن الخليفة رغب في استعادة سلطان الخلافة على مصر ولذلك أسرع بندب محمد بن سليمان الكاتب– كان كاتبا في البلاط الطولوني– في تكوين جيش والقضاء على الطولونيين في مصر؛ وبالفعل بدأ الجيش العباسي في الإستيلاء على بلدان الشام؛ وفي نفس الوقت اندلعت الفتن والدسائس داخل مصر؛ وقام عدي وشيبان إبنا أحمد بن طولون بقتل أبي موسى هارون وهو ثمل؛ وذلك فى ١١ صفر سنة 292هـ / ٢٣ ديسمبر سنة 904م؛ بعد أن حكم. مصر ثمانية سنوات وثمانية أشهر وبضعة أيام، قاست البلاد منها كل أنواع الضعف والانحلال؛ وانفرد شيبان بن أحمد بن طولون بحكم مصر؛ وانسحب جند مصر وهربوا من الخدمة فارين إلى العراق وانضموا للجيش العباسي، وضعف جيش مصر بسبب ذلك، وفقد المصريون ثقتهم في حكومة شبيبان وأصبحت مصر في وضع لا تحسد عليه.

ومهما يكن من أمر فقد وصل الجيش العباسي بقيادة محمد بن سليمان إلى مصر وعسكر أمام مدينة الفسطاط، ونهض شيبان لمقاتلته بدون جدوى وآثر السلامة على الحرب؛ وترك الجنود المصريين يلقون حتفهم على أيدي الجند العباسي؛ الذين دخلوا الفسطاط ونهبوها واعتدوا على الحرمات؛ واحرق محمد بن سليمان مدينة القطائع التي كانت بالأمس أعظم وأبهي مدينة لأقوى دولة مستقلة؛ وكانت مدة حكم شيبان حوالي تسعة أيام فقط، وانتهت دولة الطولونيين في صفر سنة ٢٩٢ هـ ؛ واجتهد القائد العباسي في إزالة آثار الطولونيين والقطائع ؛ ورجعت مصر مرة أخرى ولاية تابعة للخلافة العباسية؛ بعد أن حكمها الطولونيون لمدة ثمانية وثلاثين عاما، ومن يسمع بأعمالهم يحسبهم حكموا أضعاف هذه المدة؛ لما حققوه في كشف ملامح شخصية شعب مصر الإسلامية؛ وحزن عليهم المصريون كثيرا وانتهت الدولة الطولونية، ولكن بقيت شخصية مصر كامنة في نفسيها؛فى انتظار من يبعثها من مرقدها مثل شخصية احمد بن طولون.

خامسا الدروس المستفادة من شخصية مصر الطولونية:

صار أحمد بن طولون من أبطال التاريخ المصري العام، فهو صاحب أول دولة مصرية مستقلة ذات بناء ونظم ورسوم وشخصية فريدة، فقد كشف ابن طولون من طاقات مادية وبشرية عظيمة واستغلها على خير ما يرام؛ حتى أنه حصل على موافقة الخلافة الخياسية في الاعتراف به كحاكم مستقل ، وكشف

عن ملامح شخصية مصر القوية؛ وحافظ على ذلك ابنه خمارويه، فحصل على موافقة الخلافة العباسية في سبيل إدارته لتكون مصر مستقلا وذلك في سبيل دفع مبلغ مائتي ألف دينار، وتعهد بإرسال مبلغ ثلثمائة ألف دينار سنويا، لكني جانب الخلافة العباسية.

وكان حسن حظ الخلافة العباسية أن تصدت مصر للإمبراطورية البيزنطية، وأرغمتها على عدم الهجوم على الأراضي الإسلامية، بل جعلتها تقف موقف الدفاع عن نفسها ضد هجمات الجيش الطولوني؛ وكان أحمد بن طولون يشترى السلام بالاستعداد العسكرى؛ وابنه خمارويه اشترى السلام بالمال المتوفر داخل خزانة مصر منذ حكم والده أحمد بن طولون وتمتع خمارويه بالأبهة والحضارة، وراح ينعم بالترف ورغد العيش؛ حتى أنه بالغ في إنفاق الأموال وإغداق الهبات والهدايا البلاط العباسي وكبار رجال الدولة؛ وفي مختلف أمور الترف والمظاهر الشكلية؛ على العكس من والده احمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية؛ وعلى الرغم من ذلك ظلت مصر على درجة كبيرة من القوة والحضارة في عهده.

وبعد موت خمارويه سنة 282هـ ، حكم مصر حكام ضعفاء من أبناء البيت الطولوني، وكان البيت الطولونى افتقر من الرجال، وتهاوى ملك الطولونيين في نحو عشر سنوات بسبب الخلافات الخطيرة بين أبناء هذا البيت؛ من تناحر أفرادها على الحكم، ووصول بعض الأطفال إلى السلطة، وعدم تقدير المسئولية بالانصراف إلى اللهو والفساد، الأمر الذي عجل بزوال هذه الدولة صاحبة إحياء شخصية مصر

القوية ، وعند سقوطها اختبأت هذه الشخصية وظلت ملامحها منتظرة حاكم قوى يزيل عنها الستار فيصل معها إلى درجات التقدم والسيادة، كما فعل ابن طولون .

أضف إلى ذلك صحوة الخلافة العباسية بعد غفوتها وضعفها في مقابل ضعف حكام الطولونين من بعد خمارويه؛ وبالتالي تغاني بعض القادة الخارجين على الحكومة الطولونية في خدمة العباسيين مثل القائد محمد بن سليمان الكاتب، الذي انظم إليه معظم الجند الفارين من مصر ؛ ودخل دمشق دون مقاومة، وأحرق مدينة القطائع التي رثاها المؤرخ ابو المحاسن بقوله: "ملك الديار المصرية– محمد بن سليمان – وأمسك بالطولونيين وخرب منازلهم وهدم القصر المسمى الميدان الذي كان سكن– أحمد بن طولون وتتبع أساسه، حتى أخرب الديار ومحل الآثار ونقل ما كان بمصر من نخائر إلى العراق " .

الواقع إننا لم نجد تفسيرا لكل ما حدث سوى الانحطاط الخلقي العام لرجال الدولة العباسية في ذلك الوقت؛ فقد كانوا شرائم من العتاة شقيت بهم بغداد ودمشق، كما شقيت بهم الفسطاط والقطائع، حتى الخلفاء العباسيين قاسوا منهم، حتى وقعة الخلافة فريسة في أيدي هؤلاء الطغاة، ولكن عظمة مصر الطولونية وخاصة عهد أحمد بن طولون تأصل في النفوس، حتى أن المصريين. قاموا بثورة مصرية مسلحة ضد الوالى العباسي لاستعادة الاستقلال، ولكنها لم تنجح وتجلبت الحسرة والآلام في نفوس المصريين على الماضي البسام .

وفي الحقيقة نجح الطولونيون في إحياء شخصية مصر في ظل الإسلام، وعلى الرغم من سقوط الدولة الطولونية إلا أن ملامح الشخصية المصرية .ازدهرت في نفس كلي مصرى ،بل وضحت أمام الأجناس الأخرى من غير المصريين أو العرب، وأولهم القادة العباسيين، الذي تطلعوا في ظل طموحاتهم إلى تكرار محاولة ابن طولون للانفراد بشخصية مصر؛ فبعد قليل انفرد محمد بن طغج بمصر وأسس الدولة الإخشيدية بمصر منذ سنة 323هـ ، فأحيا ملامح شخصية مصر واستقل بها؛ وإستغل إمكانياتها الهائلة وكون دولة مترامية الأطراف مرة أخري؛ ثم سقطت على يد الفاطميين سنة 358هـ .

وعرفت الفاطميون قيمة شخصية مصر وطاقاتهم وأنها خير قطر يحق لهم السيادة على العالم الإسلامي، فترك الفاطميون عاصمتهم المهدية بأفريقية واستولوا على مصر ، وسرعان ما شيدوا حاضرة لهم وهي مدينة القاهرة التى ضارعت بغداد عاصمة الخلافة العباسية آنذالك.

الفصل السابع

الدولة الإخشيدية (323- 358 هـ /935 – 969م)

بعدما رجعت مصر إلى الخلافة العباسية على أثر سقوط الدونة الطولونية سنة 292هـ ؛ وأصبحت ولاية تابعة لها مرة اخرى ؛ وبعد سقوط الدولة الطولونية عمت الفوضى والانحلال مصر عامة ، واتسمت بكثرة الولاة المتتالين على اثر عزلهم بسب شيوع الفوضى والاضطرابات بين طوائف الجند من ناحية ، وخوف الخلافة من انفصال الوالي بمصر أسيوة بأحمد بن طولون، وكثر وقوي نفوذ الجند والقادة العسكرين بمصر ،وكانوا هم الذين لهم الأمر والنهي وكلمتهم فوق كلمة الوالي ؛ فكانوا يعزلون الولاة وينهبون الناس ويسلبون الأموال ، ولذلك اثر عدم الاحتكاك الجند وعدم محاسبتهم على أعمالهم.

فكانت الفترة ما بين ظهور الدولة الإخشيدية وما بين سقوط الدولة الطولونية ، والتي تقدر بنحو ثلاثين عاما ؛ فترة ضعف وركود ؛ حتى، أن أسرة الماذرائين الذين اضطروا إلى نفع مرتبات الجنب ، ومن أهم رجال الأسرة الماذرئية أبي زبنور الحسين بن أحمد الماذرائي الذي كان عاملا للخراج ؛ وكان هنالك أحد القضاة العظماء وهو بن حربوقة ، وكان يحضر الولاة إلي منزلة لزيارته وكان لا يقوم من مجلسه لاستقبالهم رسميا ، نظرا لما يتمتع من احترام من كافة الشعب ؛ وفي نفس الوقت يدل على ضعف سلطة الولاة في هذه الفترة حيث حكم مصر حوالي أثنى عشر واليا ، أولهم عيسى بن محمد القوشري ، ومنهم تكين ، الذي حكم مصر أربع مرات ، ونكا الروم، وهلال بن بدر ، واحمد بن كيظغ ، ومحمد بن طغج الإخشيدي .

ومن أهم ما يميز هذه الفترة هي محاولة أحد القادة العسكريين الانفصال بمصر وهو محمد بن علي النخلنجنى ، استولي على مصر ثمانية شهور ؛ وهو كان أحد العسكريين في الدولة الطولونية ؛ وكان من حملة القادة الذين كانوا مع محمد بن سليمان الثاني بعد استيلائه على مصر سنة ٢٩٢ هـ ؛ ولكن تركه في حلب ، ورجع إلي مصر أراد استرجاع نفوذ الدولة الطولونية ؛ وانضم إليه عدد كبير من المصريين ، واستولى على الرملة سنة ٢٩٢هـ ؛ ثم دخل الفسطاط بدون مقاومة في سنة ٢٩٢هـ ، ولم يقدر على حربة الوالي عيسى القورشرى.

احتفل أهل مصر ابن الخلنجي ورأوا فيه إنه أن يرجع الدولة الطولونية ؛ ووطن الخلنجى نفوذه بمصر وجمع الضرائب من الناس ، واستولى على الدلتا والإسكندرية ؛ ولكن الخليفة العباسي المكتفي اهتم بهذا الثائر و أرسل إليه جيشين متتالين استطاعا القضاء عليه وهزيمتهم بالفسطاط سنة ٢٩٣هـ ؛ وقبضوا عليه وارسلوه إلى بغداد .

كما حاول الفاطميون في تلك الفترة استغلال أوضاع مصر ، . المفككة والاستيلاء عليها ، فأرسل الفاطميون حملة فى سنة 306هـ، وكان على الحملة الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله ومعه قائده حباسة فاستولوا على الإسكندرية ثم وصلوا إلي الفيوم ولكن الجيش المصري تمكن من طردهم ؛ في سنة ٣١١هـ رجع الفاطميون واستولوا على الإسكندرية مرة أخرئ ووصلوا إلى الفيوم وخربوها ثم ساروا نحو الصعيد

واستولوا علي الأشمونين ، وفي ذات الوقت ارسلوا أسطولا فاطميا مكونا من ثمانين سفينة و دخل الإسكندرية ، ولكن العباسيون أرسلوا أسطولا استطاع هزيمة الفاطميين ؛ واستطاع وإلى مصر تكين أن يهزم الفاطميين في الفيوم وطاردهم إلي حدود المغرب ؛ على انه فى أواخر تلك الفترة امتدت وتوسعت نفوذ الجند الأتراك وعاثوا الفساد في البلاد ، كما أن زلزالا شديدا احدث أثارا مدمرة بمصر و انتشر الرعب والفوضى في البلاد إلى أن وليها محمد بن طغج الإخشيد للمرة الثانية ، واستطاع أن يوظن الأمن بالبلاد.

(أ) أحكام الدولة الإخشيدية :

أسس هذه الدولة بمصر محمد بن طغج الإخشيدي ، وكان لقب الأخشيد قد منحه الخليفة العباسي الراضي بالله محمد بن طغج سنة ٣٢٦ هـ ؛ وأن لفظ اخشيد. معناه بلغة إقليم فرغانة " ملك الملوك " ، ولأن والد محمد بن طغج كان من أمراء فرغانة ؛ وقد حصل محمد بن طغج على لقب والي مصر سنة 321 هـ من الخليفة القاهر ولكن عزله بعد نحو اثنتين وثلاثين يوما وولى مكانه احمد بن كيغلغ ، ولكن محمد بن طغج إستطاع أن يحصل علي ولاية مصر بتقليد من الخليفة الراضي للمرة الثانية في نفس العام سنة 321هـ ، وذلك بفضل المصاهرة التي كانت بينه وبين الفضل بن جعفر ، فولي أمورها في سنة ٣٢٣٠٢٣هـ .

كما وجد محمد بن طغج مقاومة شديدة من عامل الخراج محمد بن على الماذرائي ، و أيضا وجد معارضة من اتباع احمد بن كيغلغ الوالي السابق له علي مصر ؛ واستعان بمساعدة صهره الفضل بن جعفر ابن الفرات، الذي كان له جبايه الخراج من الشام ها ومصر؛ واستطاع أن يطرد اتباع ابن كيغلغ والماذرائيين ويطردهم إلي إقليم برقة ؛ واستطاع أن يحكم مصر ما بين (323–334هـ)) وضم بلاد الشام إلي مصر واتسع ملكه وسلطانه ، وكان ابن طغج شجاعا عارفا بكل أمور الحرب والسلام ؛ وأمتلك ثمانية آلاف مملوك؛ ووصل عدد جيشه إلي أربعمائة ألف جندي ؛ وكان يحرسه أثناء نومه ألف مملوك ؛ واتصف حكمه بالقوة و أشاع النفود طوال حياته .

وقد مات محمد بن طغج بمدينة دمشق سنة 334هـ وخلفه على مصر ابنه أبو القاسم الوجور ؛ وكان يدبر أمر هذا الابن المربي له وهو كافور ؛ وانضم أبو بكر الماذرائي لمساعدة انوجور في تولى أمور الحكم ؛ وكان كافور قد دبر أمر الشام ، حتى أنه ولي أنوجور سنة 335هـ ،وكانت كل الأمور في مصر مستقرة، ولذلك أطلق يد أبي بكر الماذرائي في كل أمورالدولة ؛ كما حصل من الخلافة العباسية على موافقة بتوليه أخيه على حكم مصر بعد وفاته.

وكانت السلطة الفعلية في مصادر في يد كافور ، حيث أصبح الحاكم الحقيقي لمصر ، وعندما مات أبو القاسم انوجور سنة 349هـ ؛ وافق كبار الجند ورجال القصر على تولية علي بن محمد بن طغج

واليا على مصر ، وأقره الخليفة المطيع العباسي على ذلك ، وتولى مصر والشام والحجاز ، وكان وصيا عليه كافور أيضا لأنه مربيه ومعلمه مثل اخية تماما ؛ حدثت بعض المشاكل والقلاقل بين على وكافور الإخشيد وانتهت بالمصالنة بينهما ؛ ومرض على بن الإخشيد ومات سنة 355هـ ؛ ودفن في بيت المقدس بجوار والده وأخيه.

وتولى امور مصر بعد ذلك امارة مصر بعد ذلك باتفاق الجند واعيان مصر كلها، و أعطى الخليفة العباسي المطيع لكافور لقب حاكم مصر والشام والحجاز ولقبه بالأستاذ ، وحكم مصر مدة سنتين واربعة شهور فقط بمفرده ، ولكنه أدار أمرها عشرين سنة سابقة لحكمة ؛ وكان عبدا ا سودا بطينا قبيح الشكل والقدمين ثقل البدن ومثقوب بالشفة العليا ومات سنة ٣٥٧هـ ؛ ويقال أنه دفن بمصر في قول آخر انه دفن بيت المقدس.

وعندما مات كافور، اختار الجند طفلا صغيرا ليكون واليا على مصر يسمى أبو الفوارس احمد وهو بن عم معد بن طغج الإخشيد ، وكان سنه إحدى عشر سنة ، وكان وصيا عليه بن عم أبيه الحسن عبيد الله بن طغج والى الشام ، وتقلد أمور المالية المصرية لجعفر بن الفضل بن الفرات ، وقاد الجيش (سمول)، وكره الجند والشعب قائد الجيش والوصي لإحجامهما وجهلهما ، ودارت الفتن في مصر ، وضعف الحكم في مصر ، وكانت الخلافة العباسية تحارب البيزنطيين من الحدود بين الدولتين ، وذلك استغل

الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي ، وأرسل قائده جوهر الصقلي على راس جيش ،استطاع أن يدخل الفسطاط سنة ٣٥٨هـ ، واعلى قيام الدولة الفاطمية وزوال الدولة الإخشبية.

وتواريخ حكم الدولة الإخشيدية هي :-

1- محمد بن طغج الإخشيد 323هـ /934م

2- أبو القاسم انو جور 334 هـ /960م

3- أبو الحسن علي 349 هـ

4- كافور 355هـ

5- احمد بن على ابو الفوارس 358هـ

(ب) الحياة السياسية والإدارية :

اتسعت أملاك ونفود الدولة الإخشيدية حيث شملت، بلاد الشام ومنطقة الثغور .حتى شمل نفوذ الإخشيديين بلاد اليمن والحجاز؛ وبدأ ذلك الاتساع عندما أعطى الخليفة العباسي الراضي محمد بن طغج الإخشيد حكم بلاد الشام ، وعزل أحمد بن كيغلغ عن مصر ؛ وبعد موت بن دائق سنة 330هـ ضم محمد بن طغج بلاد الشام إلى مصر، ودخل دمشق وأصلح أمورها وثبت نفوذه فيها ووافقت الخلافة العباسية على ذلك.

وحافظ إولإد محمد بن طغج على هذا النفوذ حتى عهد كافور انه جمع مصر والحرميين معا ، على الرغم من أن بعض المؤرخين ذكر أن نفوذ مصر على الحجاز واليمن كان أمرا رمزيا وليس فعليا ؛ ولكن بعض المؤرخين قد ذكر أن نفوذ مصر فى. عصر الإخشيدين شملت اليمن والحجاز في عهد محمد بن طغج الإخشيد ؛ إلي الحسن على وافق الخليفة على تقليده مصر والشام والثغور والحرمين و اليمن.

وتمتع بن طغج بعلاقات طيبة مع الخلافة العباسية مثل الخليفة العباسي الراضي(322 –329هـ) الذي قلده حكم مصر والشام ؛ ولقب بلقب الإخشيد ؛لا وسارت العلاقات الطيبة بين الإخشيد و الخليفة المتقى (329 –333 هـ) حتى إنه في سنة 332هـ عندما ضاقت أحوال الخلافة والخليفة بسبب العداء مع الحمدانين وبعض المناوئين للخليفة المتقى ؛ نقد عرض محمد بن طغج على الخليفة المتقي أن ينتقل بسعة إلي مصر ، فلم يوافق الخليفة المتقي وشكره على ذلك ؛ وفي عهد الخليفة المستكفي (333 – 334 هـ) طلب محمد بن طغج أن يوليه إمارة بغداد ولكن محمد طغج رفض ذلك ، ويبدو أنه خاف من الأمراء الأتراك وغدرهم ؛ وكانت العلاقات بينه أيضا بين الإخشيد و الخليفة العباسي المطيع : (334 –362هـ) .

وظهر اسم محمد بن طغج الإخشيد علي السكة الذهبية اي على الدنانير التى سكت سنتي 329هـ ، 333هـ بجانب أسم الخليفة العباسي ؛ وكان الوزير العباسي ابن مقلة على علاقة طيبة مع الإخشيد ومع نائبه في بغداد (أبو الحسين علي بن أحمد العجمي)؛ فلما احتاج ابن مقلة لبعض الأموال طلبها من الإخشيد فارسل له في بغداد عن طريق ابن العجمي، وقيمتها ثلاثين الف دينار، ونجد الوزير ابن مقلة بعد عزله من الوزارة في بغداد ، كان يتمنى لو سار إلى مصر وأقام عند محمد بن طغج الإخشيد ، وكانت هناك علاقات طيبة بين ابن القاسم اتوجور وأمراء البلاط العباسي وكان يرسل له الهبات و الهدايا من مصر إلي بغداد.

ومن اهم الصعوبات التي صادفت الدونة الاخشيدية بعض الثوارات التي قامت ببلاد الشام وكان منها ثورة المهلهل العقيلي في عن أبي القاسم انو جوز وتم قتله في طبرية سنة 334هـ ، وكذلك ثورة شبيب العقيلي ضد كافور سنة 348هـ ، ولكن كافور قتله في دمشق وثورة محمد بن احمد السلمي بالشام سنة ٣٥٣هـ والذي تم القبض عليه وسير إلي الفسطاط واعتقل بها ثم ثم عفى عنه كافور .

وحدث نزاع بين ابن دائق و محمد بن طغج الاخشيد حيث أن ابن دائق احد امراء الدولة العباسية خلال عهد الخليف العباسي الراضي ؛ وكان يمتلك حران والها وتتسرين في شمال الشام ، ولذلك سار نحو الشعب واقتطعها من الأخشيد سنة 338هـ ، واعد الجيش بن طغج لمحاربة بن دائق وحدث صلح

بينهما في نفس العام عند مدينة الفرما؛ ولم يحترم الصلح ابن دائق وأعد جيش وسار يريد الهجوم على مصر ؛ وحدثت معركة في الأردن انتصر فيها الإخشيدى على ابن دائق وترك له شمال بلاد الشام الواقعة شمال الرملة ،و استردها إلي مصر سنة ٣٣١هـ ، وأصلح الأمور ببلاد دمشق ودخل دمشق واقر الاحوال فيها لنفسه.

وهناك غارة الحمدانيين على الشام على الرغم من زواج سيف الدولة الحمداني من بنت اخي الأخشيد ؛ وقد ساءت العلاقات بين الحمدانيين والأخشيديين ،وحدثت معركة سنة ٣٣٢هـ بالقرب من نهر العاص إنتصر ميها سيف الدولة ؛ ولكن محمد بن طغج خرج بنفسه على راس جيش من مصر وتقابلا الجيشان في قنسر سنة ٣٣٣هـ ، وانتصر محمد بن طغج على سيف الدولة واستعاد منه الشام ، وعقد صلحا مع الحمدانين وتعهد بإرسال مبلغا من المال لهم؛ وهذا يدل على فطنه محمد بن طغج لأن الحمدانين يقاتلون البيزنطيين باستمرار وهم الحصن المنيع بين الأخشيدين والدولة البيزنطية ؛ وفي سنة 335هـ أغار سيف الدولة على الشام ولكن خرج له كافور ومعه ابو القاسم انوجور وقاتلاه وهزماه ولكن عقد صلح وتركوا له بلاده ولم يدفع له كافور أية أموالا.

كما تعرضت مصر لغارة من ملك النوبة على جنوب مصر سنة ٣٣٩هـ وكان هذا الهجوم على منطقة الواحات وقتل وضرب كثيرا منها؛ وفي سنة 44 ٣هـ قام ملاك النوبة بالهجوم على مدينة أسوان ،

ولكن القائد المصري محمد بن عبد الله الخازن ذهب اليه بجيش وهزمه وتبعه حتى ايريم ، ورجع معه عددا من الأسري من الحرب وعاد النوبيين إلى مسالمة المسلمين في مصر ، بعدما دخل منهم عدد كبير في الإسلام ، وأخذوا ينفذون اتفاقية البقط التي أقرها معهم عبد الله بن سعد زمن الخليفة عثمان بن عفان.

أضف إلى ذلك إستطاع الإخشيديون رد الغزوات الفاطمية القادمة من الغرب ؛ لأن الفاطميين تطلعوا لضم مصر إلي ملكهم واتخاذها مركزا لهم ودعوتهم الشيعية ، لقوتها ومركزها الجغرافي وكثرة مواردها الاقتصادية ، وطاقتها البشرية ، وفي سنة 324 هـ خلال عهد محمد بن طغج الأخشيد ، أرسل الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله (322 –324هـ) جيشا نحو الاسكندرية ، فأرسل له ابن طغج جيشا وهزمهم في منطقة البحيرة ،واضطرتهم للفرار نحو برقة غربا ، وحدثت مراسلات بين الخليفة الفاطمي ومحمد بن طغج تبادلا فيها الود ، وبذلك لجا اين طغج إلي كسب ود الفاطميين ولم يخسر العباسيين في ذات الوقت.

ونهج كافور الأخشيد نفس سياسة محمد بن طغج الاخشدي مع الدولة الفاطمية وكسب ودها دون ان يخسر الدولة العباسية ، وذلك مدة ولايته ووصايته على ابني محمد بن طغج الاخشيدي ، وكان القادة الفاطميون يطلقون على كافور اسم الحجر الاسود ، وكانوا يقولون اذ زال الحجر الأسود ملك المعز لدين الله الأرض كلها ؛ وعندما أرسل المعز جيشا سيطر على الواحات المصرية أرسل له كافور جيشا وطرده من مصر ، ويقال أن دعاة الفاطمين نزلوا مصر ودعوا كافور للدخول في طاعة الخليفة المعز ،ولكنه

قابلهم بالحسني ولم يجبهم الى طلبهم ولكنهم تمكنوا من جذب عددا من وجوه مصر الي الدعوة الشيعية ؛ حتى أن بعض كبار القوم كانوا يأخذون البيعة للمعز في دورهم مثل ابو جعفر أحمد بن نصر.

ونجد انه في اواخر العهد الأخشيدى انتشرت الفتن والقلاقل في مصر وخاصة بين اهل السنة والشيعة ، وكان السنيون يعتدون على الشيعة باستمرار كما حدث في سنة 350هـ عندما اعتدى الجند السودان والترك ؛ وحدث ايضا مثل ذلك سنة352هـ عندما اشتبك العامة مع الجند على اثر مقتل أحد كبار الشيعة ؛ وكانت تنذر هذه الفترة بقرب هجوم الفلاطمين الشامل على مصر و قرب استيلائهم عليها وحدث ذلك بالفعل في سنة 358هـ كما ذكرنا.

أما من ناحية الأمراء والحكام الإخشيديين فكانوا متشبهين بالخلفاء والملوك في تصرفاتهم ومعيشتهم ومعيشتهم وملابسهموبلاطهم ومواكبهم ، وكانوا مطقي السلطة في جميع شئون مصر واحوالها؛ فكان الأخشيد له حاشيته الخاصة وجنده وكان له حجاب يقفون على بابه ؛ وتتمتع خدمه وغلمانه وجواريه بمكانة عظيمة في بلاطه، فكانوا يتدخلون أحيانا لفض النزاعات بين القضاة وكبار رجال الدولة ، وأيضا بلغ الشعراء مكانة عظيمة عند الأخشيد ؛ وخاصة عهد محمد بن طغج الذي قرب الشعراء وكان يحادثهم فيستمع إلي اشعارهم .

وكان الإخشيد يخرج في موكبة بين صفوف الشعب المصري لصلاة الجمعة ؛ وكان يتشبه باحمد بن طولون في اقامة الحفلات والمناسبات وأقام حلبة الخيل سنة 324هـ ؛ وكان يمتلك من الواشي والخيول ماليس له مثيل عند اى حاكم اسلامى ؛ وقلد ذلك كافورفكان يجمع الادباء والمؤرخين الذين ذكرا ا كتب السير والأخبار التي سبقت عهده ؛ وأخذ الغلمان والجواري والحجاب ، وكان في بلاطه أربعة آلاف من الغلمان والجواري والمغنيات .

وقرب كافور الشعب والأمراء اليه ،فكان له موظف خاص يسمى أبي بكر المحلي يقوم على امور المصاريف الخاصة بالخدم والقصر ، وكان يقدم سماط يشبة سماط احمد بن طولون ، فكان سماط كافور في اليوم الواحد يحتوي علي مانتي خروف ، ومائة خروف أخر من نوع الرميس ، وخمسين أوزة وخمسمائة دجاجة والاف طيرمن الحمام وملة صحن من الحلوة ، غير الشراب المحلى بالسكر والليمون ، وحمل اليه الثلج من الشام ، ليستخدم في عملية تبريد الماء والمشروبات الخاصة بالقصر ، وزج بلاطه بالخدم والأمراء والشعراء من كل بلدان مصر والبلدان الإسلامية.

وكانت مدينة العسكر هي دار الأمارة التي سكتها الحكام الإخشيديون ؛ وكانت سلطة الوزراء في الإخشيدي سلطة تنفيذية ، ومن أهم وزراء الإخشيديين الوزير أبو بكر محمد بن على الماذرائي ، والذي ظل وزيرا للإخشيديين حتى مات سنة344هـ ؛ ومن الوزراء أيضا ابو الفضل جعفر بن الفرات الذي وزر

لكافور الإخشيد؛ وتمتع هؤلاء الوزراء بثروة كبيرة ؛ وأعتق الوزير أبو بكر المازرائي مائة آلاف عبده في حياته ؛ وحج إحدى وعشرين حجة ، وكان ينفق في كل حجة مائة آلاف دينار؛ واحيانا كان يخنق عليه الإخشيد لكبريائه وعظمة ثروته فاعتقلة سنة 331هـ ؛ وهذا يدل على ما تمتعت به مصر من ثروة وتقدم ورخاء.

ومن أهم موظفي الحكومة الإخشيدية عمال الخراج ، وكان يقوم بتعينهم الحكام الإخشيديون ؛ وكانوا يجمعون الضرائب ، ومنهم ابو الحسن الفراغاني ، وعلى بن محمد الكرخي ، ومحمد بن علي بن مقاتل ؛ وأيضا اشرف على الخراج يعقوب بن كلس في زمن كافور؛ وكان يعاون موظفي الخراج بعض الموظفين من الأقباط منهم ابن عيسى وجرير وإبراهيم بن مروان ؛ واستخدمت طريقة قبالات الأراضي لجميع الخراج، وكانوا يعطون الأرض كل أربع سنوات ، وفي مسجد عمرو بن العاص مثلما كان في عهد الولاة ؛ وكان الخازن ورئيس دار الضرب من أهم الموظفين في العهد الاخشيدى.

وقام رجال الشرطة في العهد الإخشيدي بالاشراف على الامن والنظام وتنفيذ القوانيين والاحكام الصادرة من القضاة ؛ ومن اهم رجال الشرطة سعيد بن عثمان ، و الحسين ، ولؤلؤ الغورى ؛ وكان عددهم كبير خلال العهد الاخشيدى، و أيضا استخدم الإخشيديون الكتاب وهم مثل السكرتير الخاص او رئيس الديوان ؛ وكان يقوم الكاتب بأعمال الشئون المالية والمهام العسكرية ؛ وظهرت منهم شخصيات عظيمة

منههم ابو جعفر بن المتفق وعلى بن صالح الروذيارى ؛ ويتالف ديوان الانشاء من مجموعة من الكتاب لتحرير الرسائل المرسلة إلي الأمراء والملوك.

ولعب القضاة دورا هاما في العصر الاخشيدى، فكانوا يحكمون في المنازعات ويشرفون على الاجياس ، ويخرجون لرؤية هلال شهر رمضان المعظم، وكان يعينهم الخليفة العباسي، و أحيانا الأمراء الاخشيديون ، وكانوا على مذاهبة متعددة ومن بلدان مختلفة ، وكان يضاف اليهم قضاء بعض الأقاليم الأخرى مثل الشام و حمص أوفلسطين ؛ فكانوا يعينون من نواب على هذه البلدان التابعة لقضائهم ، وكانوا يستعينون بكبار الفقهاء لمساعداتهم في القضاء مثل أبو بكر الحداد الذي وثق في حكمه القضاء.

وتميز لبس القضاة بالسواد شعار الدولة العباسية؛ وكان يقرأ القاضي عهد القضاء في الجامع ؛ ويقضون بين الناس أيضا في جامع عمرو بن العاص ، وفي بيوتهم ؛ وكان لهم حجابا ينظمون دخول أصحاب القضايا أمام القضاة ؛ وكان الكتاب يكتبون الأحكام ويحفظونها وكانوا من كبار العلماء أيضا ؛ وكان منهم طائفة من الشهود العدول ؛ ومن أهم القضاة في العصر الإخشيدي محمد بن بدر الصيرفي والحسين بن ابي زرعة الدمشقي ؛ وعبد الله بن أحمد ،زعبد الله بن أحمد بن شعيب ، ومحمد بن أحمد الحداد ؛ ومنهم من مال الي الرشوة ، وكان الأمراء الإخشيديون يولون القضاة ويتدخلون في شؤونهم

أحيانا ، وكان معظم العلماء يسارعون إلى منصب القضاء في العصر الإخشيدي ، وذلك لكبر مرتبة القاضى خلال العصر الإخشيدي .

اضف إلي ذلك، إنه انفرد قاضى مستقل للنظر فني المظالم ، وبعد قليل ليصبح الأمراء الإخشيديون ينظرون بأنفسهم في المظالم ، وكان كافور يجلسن يوم السبت للنظر في المظالم، ويحضر معه الفقهاء والقضاء والشهود والعلماء و اما المحتسب فظهر في العصر الإخشيدي فكان يشرف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحسن السلوك وتنظيم الأسواق واحوال الباعة والعمال ، ومعاقبة الغشاشين وكان الوزير الذي يعين المحتسب ، واهم المحتسبين محمد بن سلام ، ومن عدل في سيرته ومنهم من ضل عن طريقه .

اما عن النظام الاداري زمن الإخشيد فهو لم يتغير عن سابقه ، فكانت مصر مقسمة إلي كور و قري ، وكانت عدد الكور ما في ذلك الوقت ثمانين كورة؛ ؛ ونحو ألفين وثلاثمائة وخمس وتسعين قرية منها بالصعيد تسعمائة وست وخمسون قرية ؛ وكان يحكم الكورة حاكم يسمي باسم صاحب الكورة ، وكان حاكم القرية يسمى العميد ؛ وكان معظم أصحاب الكور والمناصب الإدارية من الوافدين على مصر أو من الجند الإتراك .

و ومن ناحية الجيش المصرى في العصر الإخشيدي فقد وجه الاخشيديون كل أهتمامهم بالجيش المصري لمجابهة الاخطار التي تهدد دولتهم الواسعة بالشام ؛ فقد بلغ جيش الاخشيد حوالي اربعمائة ألف جندي في مصر والشام ، واحتوي على عدة أجناس مختلفة مثل الترك والسودان والمغاربة و المالياك ،وكان محمد بن طغج يستعرض هذا الجيش في احتفال مهيب يشبه العرض العسكري في أيامنا هذا ، وذلك في ايام الأعياد والمناسبات الحربية .

واقسمت طوائف الجند في عهد كافور الى فرقتين الإخشيدين والكافورية، وكثيرا ما كان يدب النزاع والفتن والقتال بين الفرقي ، حتى أنه بعد وفاة كافور الإخشيد إنتشرت الفوضى في صفوف الجيش المصري واندلعت الفتن والدسائس، بين قادة الجيش ، فضعف الجيش في هذه الفترة الذي دار بين طوائف الجند في مصر ؛ وغلت الأسعار ونهبت الأسواق ، والتحق كثير من الجند بالحسن بن عبد الله الإخشيدي بالرملة ؛ وقال عدد الجيش ونقص وتدهورت أحوال مصر .

وكون الاخشيديون أسطولا قويا أيضا ، وكان قائد الأسطول الاخشيدى صاعد بن كلملم، ونقل محمد بن طغج دار صناعة الإسطول من جزيرة الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن فاقان زوجة أحمد بن طولون بساحل الفسطاط ؛ و ايضا اهتم كافور بصناعة السفن وتكوين الإسطول وكان يحتفل

كافور بانزال المراكب والسفن الجديدة إلي النيل في احتفال كبير، ويجتمع الناس علي الشاطئ ليشاهدوا هذا الاحتفال الضخم.

تاريخ الدولة الفاطمية في مصر (358هـ-567هـ)

منذ أن قامت الدولة الفاطمية في المغرب سنة 358هـ وهم يرمون إلى تأسيس دولة مترامية الأطراف هدفها الرئيسي القضاء على الدولتين الإسلاميتين السنيتين العباسية في الشرق والأموية في الأندلس، وقد حرص عبيد الله المهدي منذ أن آل إليه أمر الخلافة على تنفيذ هذه السياسة، فبينما نراه مهتم بالأندلس ويرسل العيون وبعث أعوانه لإطلاعه على أحوالها، تراه لا يغفل أمر مصر، وكان يدرك تمام الإدراك أهمية موقعها الاستراتيجي كمركز للعالم الإسلامي واعتبارها رأس الحربة إلى بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية قد يتيح الفاطميين تنفيذ خطتهم بنجاح، كما أن ثراء مصر العريض ووقوعها على بحرين هامين هما بحر الروم (المتوسط) وبحر القلزم (الأحمر)، يحقق أهداف الفاطميين في إقامة أسطول قوي يعينهم على السيطرة على منطقة الشرق الأدنى وإقامة دولة فاطمية ممتدة الأطراف ومن البديهي أن أفريقيا بلاد فقيرة بالقياس إلى مصر، الغنية بثرواتها المختلفة .

فقد كانت مصر تشكل المكان الأمثل لأن تكون مركز للدعوة الشيعية من الوجهتين السياسية والاقتصادية ، وتستطيع أن تمد الدولة الفاطمية بكل ما تحتاج إليه للسيطرة على العالم الإسلامي وإحلال

النفوذ الفاطمي محل النفوذ العباسي في بغداد والأموي في الأندلس ، وقد كانت السنوات الأولي التي أعقبت قيام الدولة الفاطمية في المغرب على يدي المهدي تتسم بالقلاقل الداخلية وعدم الاستقرار سيما، بعد أن أمر المهدي باغتيال أبو عبد الله الشيعي الذي يرجع له الفضل الأكبر في إرساء قواعد الدولة الفاطمية وتأسيسها كما مر بنا في الصفحات السابقة .

وعلى أية حال فقد بدا عبيد الله المهدي نشاطه الخارجي تحقيقا لأهداف الدولة الفاطمية في النيل في العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس فلم يتردد في سنة ٣٠١هـ من إمداد عمرو بن حفصون الثائر على الأمير عبد الرحمن بن محمد بالسلاح ، على الرغم من أن أبن حفصون لم يكن مخلصا للدعوة الشيعية وإنما كان يتخذها مطية لأغراضه الخاصة مكابدة للأمويين في قرطبة وفي نفس العام أرسله عبيد الله المهدي جملته الأولي على مصر لإخضاعها تحت النفوذ الفاطمي.

والجدير بالذكر هنا أن نشير إلى أن قيام عبيد الله المهدي بمد العون إلى السائر اين حفصون في الأندلس وإرسال الحملة الأولي على مصر في نفس الوقت تقريبا يكشف عن ضعف الرأي القائل بأن الفاطميين قد فتحوا مصر عندما • فشلوا في الاستيلاء على الأندلس إذ أن الفاطميين قد فكسروا . . في فتح مصر ، وشرعوا في تنفيذ ذلك لم يمض على نسشأت دولتهم بالمغرب سنوات قليلة، كما أن التصريحات التي أدلي بها الخلفاء الفاطميين والتي وردت في العديد من المصادر التي بين أيدينا، تكشف أن مصر

كانت بالنسبة لهم حجر الزاوية في سياستهم الخارجية ، فكانوا يعتبرونها المعبر إلى الشام والعراق حيث بغداد مقر الخلافة العباسية السنية .وقد اشار ابن الأثير في تاريخه ما يؤكد أن الاستيلاء على مصر كان من أهم أهداف السياسة الخارجية الفاطميين ، اما هدفهم الأكبر ، فكان الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة نادر العباسية السنية -- فذكر ابن الأثير في هذا المجال حديثا للمعز :مع رسول الدولة البيزنطية قدم إلى مصر بعد انتقال المعز : إليها ، فقال المعز للرسول: " تذكر أن أتيتني رسولا وأنا بالمهدية، فقلت لك، لتدخلن على وأنا بمصر مالكا لها ؟ قال نعم " وقال المعز" وأنا أقول لك لتدخلن على بغداد وأنا خليفة " . وفيما يأتي نعرض لهذه الحملات الفاطمية على مصر .

الحملة الفاطمية الأولي على مصرسنة 301هـ

واجهت مصر عدة محاولات لفتحها من جهة الفاطميين منذ خلافة عبيد الله المهدي الذي أنفذ ثلاث حملات الغزو مصر، الأولي سنة 301هـ بعد أن تمكنت قواته من الاستيلاء على برقه سنة ٣٠٠ هـ فاتخذها قاعدة له لمواصلة الزحف على البلاد المصرية ، فتوغلت في الوجه البحري حتى بلغت بلدة مشتول السيرت – احدي قري بلبيس شرقية فلما بلغ الخطر ذروته. أمر والي مصر منادي الجهاد بالنفير في الناس حتى تجمع له الناس وفي الوقت نفسه أرسل إلى الخليفة المقتدر العباسي في بغداد مستنجدا، فلما توالت الحملات من بغداد، بقيادة بمؤنس الخادم اشتبك الطرفان في عدة معارك انتهت بهزيمة

الفاطميين بقيادة حباسية مصال الكتامي. وفراره مع قواته ليلا حيث انسحبوا إلى برقة وهم في حالة سيئة، ولما وصل حباسة بن مصال القائد الفاطمي إلسي المغرب أمر الخليفة عبيد الله المهدي بإعدامه بسبب ما لحق به من هزيمة على يد القوات العباسية.

ولكن على الرغم من فشل الحملة الفاطمية الأولي هذه على مصر إلا أنها حققت نجاحا في اتجاه الدعوة الفاطمية حيث تم لها ضم انصار كثير من المصريين ممن أظهروا عطفهم على الفاطميين وتوجهوا الى دعوتهم وقد تعرضوا هؤلاء إلى السجن والقتل في سنة على يد الوالي تكين العباسي الذي نجح في متابعة كل من أظهر موالاته للفاطميين في مصر .

الحملة الفاطمية الثانية (٣٠٧ هـ)

وقد تم إعدادها الإعداد الجيد فنشدت الخلافة الفاطمية حشودا كبيرة من كتامة وبربر إفريقية وولي القيادة عليها أبو القاسم القاكم بن عبيد الله المهدي ، وتم تدعيم الحملة البرية بقوات بحرية تتألف من مائة مركب عربية عبارة عن ثماني طرادات وعشرين عشاري، بقيادة سليمان الخادم اتجهت إلى الإسكندرية حيث تم احتلالها، فلما وصلت الأنباء إلى الفسطاط و ارتجات الناس وفر بعضهم إلى القلزم والحجاز، وكان الوالي ذكا الرومي أو (الأعور) يعاني في الوقت نفسه من ثورات الجند بسبب تأخيرة في صرف رواتبهم وعطاياهم، وتوغلت القوات الفاطمية في البلاد المصرية حتى تم لها الاستيلاء على . الفيوم وبعض

جهات الصعيد واستقر الفاطميون في هذه :النواحي وقاموا بتحصيل الخراج. مما جعل الخلافة العباسية . ترسل مؤنس الخادم على رأس فرقة من الجيش العباسي النجدة مصر وحمايتها من الضياع فلما وصل مؤنس أغدق ... الأموال على الجند مما أدي إلى رفع معنوياتهم وإعادة الثقة فيهم واحتشد له جمع كبير منهم قام بتقسيمهم إلى عدة فرق لضرب الفاطميين في عدة جهات وقت واحد، فاتجهت فرقة بقيادة حتى الخادم الصفواني إلى الجيزة لحمايتها، وزجف ثمل الغني على رأس قوة إلى الإسكندرية لطرد الفاطميين منها واتجهت فرقة أخرى إلى الفيوم ، ولما أكمل مسؤنس استعداداته وخططه الحربية سار على رأس القوة الرئيسية القتال أبي القاسم الذي ما أن علم بما أقدم عليه العباسيون جمع جنده وغاد بهم إلى إفريقية بعد سنتين وثمانية أشهر من بدع هذه الحملة التي انتهت بتدمير أسطولها البحري وعادت من حيث أتت دون أن تحقق الحلم الفاطمي في الاستيلاء علي مصنه م ى توان والجدير بالذكر أن الحملات الفاطمية على مصر قد توقفت إلى ثلاث عشر عاما بسبب انشغال الخلافة الفاطمية بتوطيد سيادتها في بلاد المغرب والقضاء على فتن وثورات الخارجين عليها .

الحملة الفاطمية الثالثة على مصر

وأرسل عبيد الله المهدي حملته الثالثة تحت قيادة خيشي بن أحمد المغربي فحدثت مناوشات بين الجنود الفاطميين والمصرين وتم عقد هدنة بين الطرفين في صقر إلا أن القتال لم يلبث أن اشتعل بينهما

في الجيزة وبلبيس، وانتهي الأمر بانتصار المصريين بقيادة محمد بن طغج في جمادي سيسنة ٣٢٢ هـ /٩٣٠ م وعاد الجند الفاطمي إلى بلاد المغرب، وخلال ذلك كان الخليفة الفاطمي قد توفي ، وأخفي ولي عهده خبر موته إلا بعد استقرار الأمور في بلاد المغرب وتلقب بالقائم، واستكمالا لهذه الحملة الثالثة أرسل القائم جيشة سنة ٣٧٣ هـ /٩٣٠م التقي مع الفاطميين عند بلدة تروجه بالبحيرة لكن الجيش الفاطمي لم يستطيع الصمود في وجه قوات الإخشيد وفروا إلى برقة فتتبعتهم القوات المصرية وأسرت منهم عددا كبيرا من بينهم بعض وجوه الفاطميين وقادتهم، وعاد باقي الجيش الفاطمي إلى إفريقية سنة ٣٢٦هـ /٩٣٠م بعد ما لحق به من هزائم على يد القوات الإخشيدية في مصر.

وهنا نود أن نشير إلى أن الحملات الفاطمية الثلاث السابقة لم تستطيع تحقيق أهدافها في فتح مصر وفرض السيادة الفاطمية عليها وقد يرجع ذلك إلى أن مصر كانت من القوة بحيث استطاعت أن ترد غارات الفاطميين وخاصية بمعاونة القوات العباسية، فقد حرص الخلفاء العباسيون على الحفاظ على مصر مفتاح الغرب الإسلامي وتأمين الشمال الإفريقي، هذا بالإضافة إلى أن الثورات التي قام بها الخوارج في بلاد المغرب حالت دون حشد القوات اللازمة لتنفيذ ذلك المخطط الكبير، ولانشغال الخلافة الفاطمية ولفترة طويلة بمواجهة الثائرين بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي قام . بفتنة أربكت الدولة الفاطمية

الناشئة وافقدتها عددا كبيرة من كبار القواد وخيرة رجالها وأحدثت بها العديد من الاضطرابات والأزمات الداخلية .

ومما ينبغي الإشارة إليه الفاطمية على الرغم من فشل الحملة الثالثة علي مصر وعودتها إلا أنها أظهرته بمدي المصريين خلال وجودها في الإسكندرية مما شجع الخليفة القائم الفاطمي على مكاتبة الإخشيد والي مصر لاستمالته نحو الدعوة الفاطمية التي وصفها في كتابه " إتباع الحق. ولزوم . الصدق ، ودعوته إلى فتح صفحة جديدة في العلاقات تقوم على المودة. والصداقة جيث قال له: فإنني أرضي منك ... بالمودة والأمر والطاعة "على أن الإخشيد لم يعلن موافقته على طلب القائم وأرسل إليه أنه غير عازم على خلع طاعة العباسيين التي منحته مصر طعمه له ولأبنائه من بعده، وقى سبيل كسب ود الخليفة الفاطمي، أنفذ إليه كتابا يعرض عليه زواج ابنته من ولي عهده المنصور، وعلى الرغم من موافقة القائم على هذا العرض إلا أن هذا المشروع فشل ولم تتحقق للإخشيد أمنيته في أن يعتلي مركزا مرموقة في كنف هذه . الدولة الفتية ، ولما توفي الإخشيد سار على نهجه كافور الإخشيدي، في الحرص على توطيد علاقته بكل من الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي ، فكان بهدي المعتز صباحي المغرب ... ويظهر ميله إليه ، وكذا يذعن بلطاعة لبني العباس في بغداد، ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء ..| وذلك من اجل مصلحته الشخصية في الإبقاء على نفوذه .